الخلافة الاسلامية

القسم الأول

عصر الراشدين

بقلم

عبد الحميد بخيت

المدرس بكلية أصول الدين

وفق المنهج المقرر على السنة الثانية بالكلية

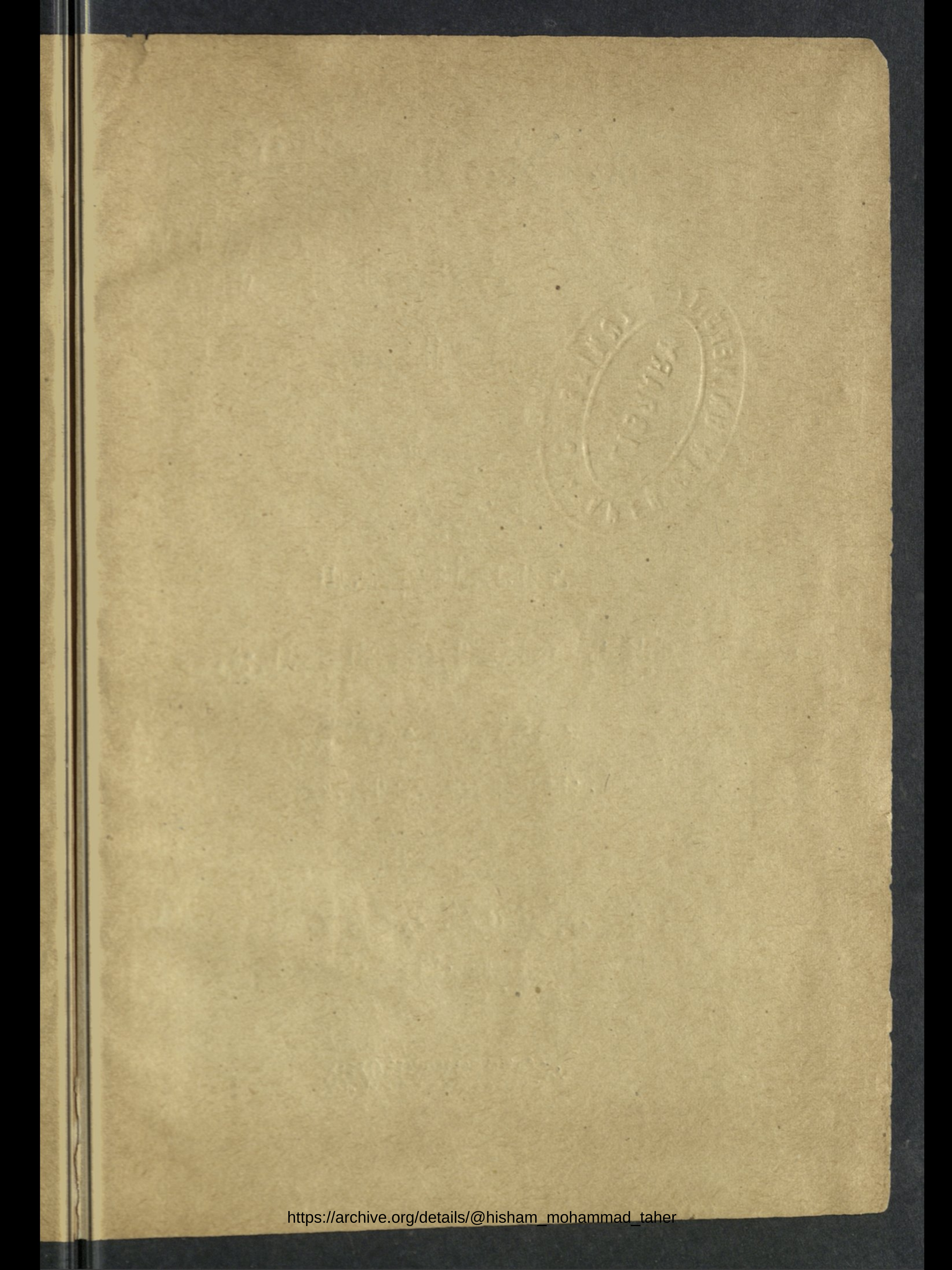
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

يطلب من

مكتبة محمود أفندى توفيق

بالسكة الجديدة بمصر

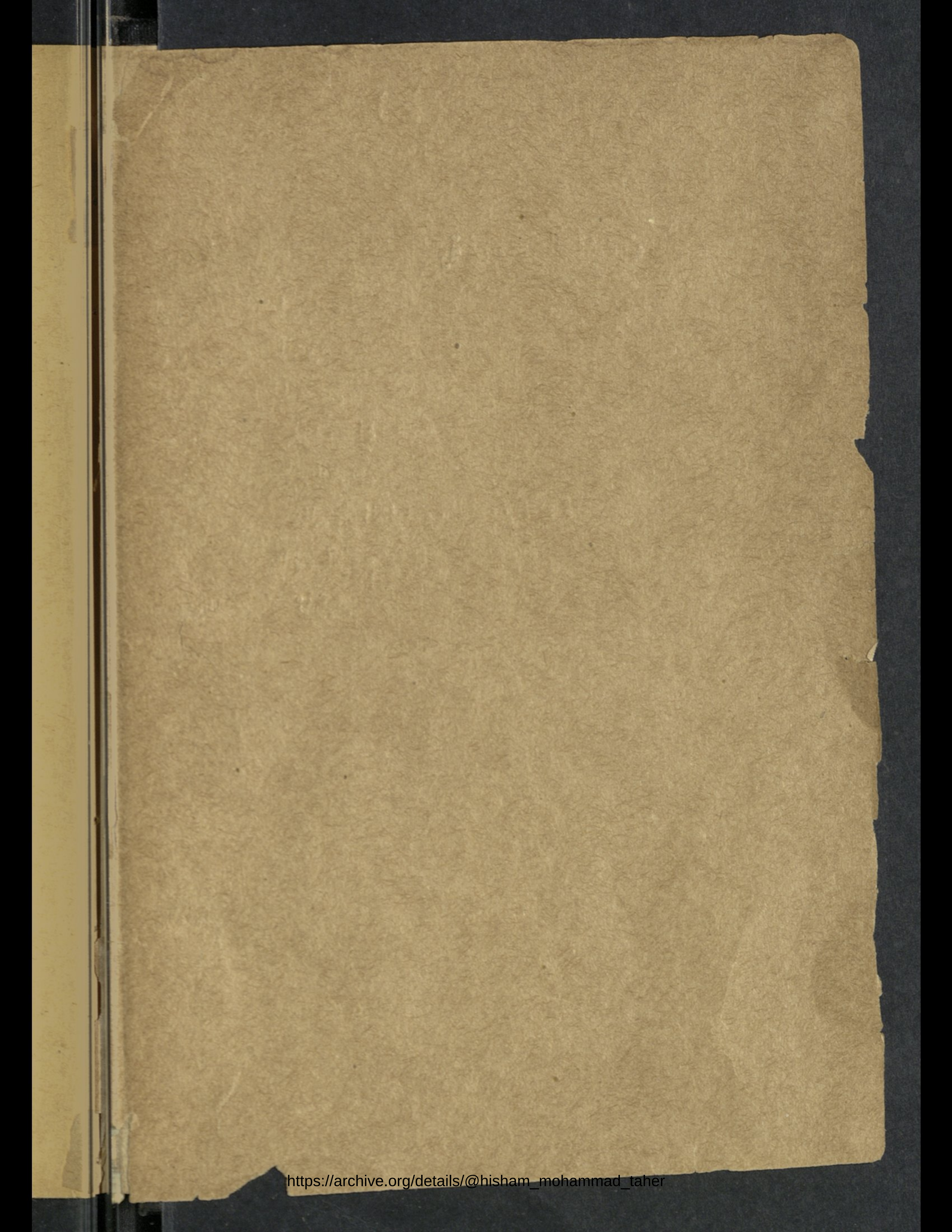
مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



موضوعات الكتاب

الصحيفة

الصحيفة



أهم المصادر

نشير فى هـذا إلى ما ينبغى أن يرجع الطالب إليه فى كتب التاريخ الاسـلامى لتوسيع مداركه وإلمامه بتاريخ حقبة من اثري أحقاب الدنيابالعظمة والجلال . وها هى ذى أهم تلك المراجع :

١ — كتاب تاريخ الامم والملوك للطبرى

٢ — « الكامل فى التاريخ لابن الاثير

٣ — « العبر لابن خلدون

٤ — « مروج الذهب للمسعودى

٥ — « تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم

٦ — « محاضرات الامم الاسلامية للمرحوم محمد بك الخضرى

٧ — « حياة محمد للدكتور هيكل باشا

٨ — « الخلافة للسير توماس ارنولد (بالانجليزية)

٩ — كتاب المرآة الوضية للمستشرق فان ديك الامريكانى (معرب)

١٠ — « تاريخ العرب لسيد أمير على (معرب)

١١ — « مذكرات أصول الدين في تاريخ الخلفاء

١٢ — « الخلفاء الراشدين للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار

١٣ — « تيسير الوصول لابن الديبع الزبيدى اليمنى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

دراسة التـاريخ من ألزم الدراسات بين سائر العـلوم والفنون ، وليس من شك فى أن كل إنسان مدفوع بطبعه لدراسة تاريخ أسرته وبلده ووطنه وأمته وأسلافه الاقدمين لمعرفة المدى الذى بلغوه والوسائل التى استخدموها حتى يتجنب أخطاءهم ويقتفى آثارهم فى الحسن من أعمالهم .

وان تاريخ الاسلام مع كثرته وضخامتـه ليرجع فى أصـله الى عصرين متشابكين . الاول منهما عصر النبـوة الصافى . والثانى عصر الخلافة الرشيدة التى كان رائدها المثل الأعلى فى الدين والاخلاق ، والحرب والسياسة وأولئك هم لرجال الذين قادوا الدولة الاسـلاميـة في ذلك العصر . هم أبو بكر وعمـر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وجزاهم عن

الفضيلة والمبادىء خير الجزاء .

على أننا سوف نرى إذ نعرض لبسط الاحداث في ذلك العصر الثانى الذى نحن بصدده وان قد بدأ يبدو تحول ظاهر عن عصر الرسول الكريم . كما أننا سنشهد كثيراً من نشوء شتى الميول والاهواء التى لم تكن فى عصر النبوة وسنحاول جهد المستطاع أن نعلل الحوادث وأن نعلق على آثارها ، وأن نعطى صورة واضحة عن ذلك العصر ، بحيث تكون مجردة من الحق ، وعارية إلا من الواقع .

أما طريقتنا فى العرض فتتلخص فى أننا نعرض الاحداث - فى إيجاز مناسب - ثم نعقب بالرأى بعد أن نزن تلك الاحداث بميزان الحق والواقع الذى تقرره المستندات التى تنص عليها أو ترجحها وإن لم نجد ذلك حاولنا أن نقارن بين الماضى والحاضر وأن نزن القديم بالحديث ثم نحاول الاستنتاج على هذا الضوء الذي لا يكاد تطمس له معالم .

أما الموضوعات التى سنقصر الحديث عنها فى هذا

القسم من الكتاب فهى :

أولا - الخلافة ونظم الحكم في عهد الراشدين الاربعة

وثانيا - بيعة السقيفة واستخلاف أبى بكر وحروب الردة .

وثالثاً - الفتوحات الاسلامية فى عصر الأربعة الراشدين .

وسنحاول ما أمكن أن نوجز الحوادث بما يتفق مع منهج الدراسة فى أصول الدين للسنة الثانية ، مراعين فى ذلك ثقل العبء فى المواد الاخرى المقررة على الطلاب فى هذه المرحلة من التعليم .

واننا لنضرع الى الله وحده أن يعيد للاسلام مجده ، ولبنيه عزتهم ، وأن يوفقنا لما فيه رضاه ، إنه نعم المسئول ، ونعم المجيب .

[الخلافة ونظم الحكم فى عصر الراشدين]

الخلافة — بيت الخليفة — شكل التعيين — نظريات الفرق — حكومة الراشدين — نظامهم الشورى — الادارة — الجيش .

الخلافة

كانت زعامة المسلمين فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، تتركز فى شخصه ، وكان بذلك يضطلع بوظيفتين (١) التبليغ عن الله لشتى شرائع الاسلام (٢) وإمامة المسلمين لتوجيههم الى النافع وإبعادهم عن الضار فى تلك الحياة .

واذ كان محمد — حسبما تقرر من تعاليمه — خاتم النبيين ، فقد انتهت الوظيفة الاولى ، وبقيت المسألة الثانية وهى امامتهم الدنيوية ، فلما توفي الرسول وعلم بالخبر أتباعه اتجهت أنظارهم الى من يخلفه فى قيادتهم وتوجيههم ، وفعلا ثاب الأنصار الى سقيفتهم وأخذوا يتشاورون فى تعيين ملك عليهم يشرف على تنفيذ مبادىء الاسلام ، ويحفظ عليهم الدولة العربية فى المدينة تحت راية الاسلام .

ولم يكن المهاجرون أقل شأناً من الأنصار في هذا المضمار فإنهم بمجرد أن تبلغهم أنباء السقيفة لا يستقر لهم قرار حتى يسرعوا الى الانصار وينازلونهم بالحجج والبراهين على أنهم أحق بالخلافة منهم وأنهم عشيرة الرسول وأهله الأقربون ثم تنتهي المسألة بانتخاب أبي بكر من المهاجرين مما سنفصله إن شاء الله فيما بعد في موضعه .

بيت الخليفة

على أن هذا الذي حدث في السقيفة كان منشؤه في الحقيقة اختلاف وجهات النظر في البيت الذي يختار منه خليفة الرسول فالأنصار يرون أنهم أصحاب العاصمة الاسلامية وأن في تصريحات رسمية من الرسول ما يعطيهم الحق في أن يكونوا ولاة الأمر من بعده ، وأن هجرة الرسول عن بلده وقومه واتخاذ وطنهم وطنه ، وتأسيس دولته بينهم ما يجعلهم خلفاءه في الدولة ، وأمراء المسلمين من بعده .

وعلى ذلك نستطيع أن نتبين من نظرية الأنصار أنهم يريدونها قومية محلية باعتبارهم أصحاب البلد وأهل الحل

والعقد فيه وأن المهاجرين جالية أجنبية يجب أن يخضعوا لحكمهم ، اويجلوا عن وطنهم . وبهذا كان يتحدث خطباء السقيفة .

وليس صحيحاً أن الأنصار كانوا يرون عدم التخصيص ببيت أو قبيل . إذ الواقع أنهم كانوا يرون قصر الخلافة على قبيل الأنصار من بنى ثعلبة . فهم سواء مثل القرشيين الذين يريدون أن يجعلوها فى بيت قريش . وإن كان الفريقان على طرفى نقيض . الأنصار يريدون أن تكون الامارة فى الأوس والخزرج أصحاب يثرب . والمهاجرون يريدون أن تكون فى طبقة خاصة من مكة وهى مهاجرة قريش من المسلمين السابقين وكان بطل النظرية القرشية بالمعنى السابق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن على رأيهم من المسلمين .

كان الى جانب هؤلاء الطبقتين من الأنصار ومهاجرة قريش ، فريق ثالث هم القرابة القريبة من الرسول ، مثل على والعباس من بنى هاشم ، وهؤلاء ومن على رأيهم يرون أن تكون الخلافة فى أخص الطبقة القرشية من بنى هاشم

على أن نظرية القرابة القريبة – فى الواقع – كانت أقرب الى السلامة من النظريتين السابقتين ، لو أن المسألة كانت وراثية ،أو مقررة فى المبادىء الاسلامية .

ولكن الذى حدث غير هذا . فأن الكتاب – وهو دستور محمد – لم يشر أية إشارة الى من يخلف الرسول من بعده .

كذلك سنة النبي وتعاليمه واضحة فى نبذ العصبية والنسب وصريحة فى وجوب الاعتماد على الكفاية والمقدرة الى جانب الشورى الكاملة التى هى من أخص نعوت المسلمين .

ولقد كانت حجج مهاجرة مكة تحوم كلها حول شىء واحد وهو أن قريشاً زعيمة العرب ولا تأنف قبيلة منها من سيادتها ، لمجدها القديم ووضوح زعامتها ، ولم يعرض أبو بكر – وهو سيد المهاجرين وخطيبهم فى السقيفة – لشىء سوى هذا . اللهم إلا بعض لفتات خفيفة نبه بها الانصار اليها مضافة الى منزلة قريش وذلك مثل ان مهاجرة

قريش زعيمة العرب ، ورهط الرسول الأقربون ، وعشيرته
وأهله وأولى الناس بخلافته .

وهذا فى الواقع لا يعدو أن يكون تعزيزاً لحق قريش
فى سيادة العرب . ولكن فى بعض بطونها ممن حمل لواء
المبادىء المحمدية ، وضحى فى سبيلها . فذانك برهانان يقوى
أحدهما الاخر ، ويعزز حق المهاجرين فى خلافة النبى القرشى
ولعل فى هـذا ما يشير الى أن تعـاليم محمـد لم تكن لقلب
الأوضاع وهدم النظم ، ولكن لاصلاحها وتهذيبها ، وإزالة
العوائق من سبيلها حتى تخدم الدين ، وتسعد الانسانية
على أن العرب كانت ولما تزل تدين بالعصبية ، وتتداعى
بالاحساب ، ومن غير المنتظر أن يدينوا لغير قريش سادنة
البيت الحرام ، وأسرة الرسول الكريم .

فلو أن الانصار إنتصروا وكانت الخلافة فيهم لتصدع
بناء الدولة الاسلامية ولنشبت الحروب الاهلية ، ولقضى
على الدولة الناشئة قبل تدعيمها وتنظيمها .

والذى يعنينا من كل ماسبق ، ان المسلمين بعد وفاة

الرسول كان كل همهم أن يختاروا أميرا عليهم ينفذ تعاليم
نبيهم ويوجه جماعتهم ، وانهم اشتوروا وقلبوا وجوه الرأى
وتضاربت أراؤهم فى البيت والاسرة ، والمقدرة والكفاية
وإن كل ما حدث لم يجاوز حد المسائل العادية التى تحدث
بين كل جماعة تسعى فى اختيار رئيسها ، لتفوض اليه
الاشراف على شئونها .

والسبب المباشر لكل ذلك هو فى الواقع محاولة
انتخاب الاصلح لادارتهم ، القدير على تدبير دولتهم وادارتهم
وقيادتهم ،

ولا يمكن أن نطلق على هذا اسم النظريات الا من
ناحية واحدة ، وهى ما نجم عن ذلك فيما بعد بين الفرق
الاسلامية ووضعها اراء ونظريات عزتها الى ذلك الحادث
الساذج الذى وقع المسلمين بعد وفاة نبيهم .

ليست رئاسة القبيلة عند العرب وراثية ، إنما هى شكل التعيين
انتخابية محضة ، يراعى فيها مبدأ الانتخاب العام ، ولجميع
أفراد القبيلة حق إعطاء أصواتهم فى انتخاب رئيسهم .

ويجرى الاقتراع على أفراد أسرة الرئيس المتوفى على أساس الاسبقية فى السن والجاه.

وقد روعيت تلك العادة القبلية القديمة فى انتخاب أبى بكر خليفة النبى. إذ أن العجلة أوجبت الاسراع فى البيعة دون أى ابطاء. فأنتخب أبو بكر على جناح السرعة.

وقد كان أبو بكر يتمتع بتقدير العرب كافة. نظرا لكبر سنه وسمو مكانته بين أهل مكة، كذلك كان رقيق القلب سديد الرأى قبايعه على وكبار آل البيت غيرة منهم على الدين وحبا فى توحيد كلمة المسلمين[١].

على هذا الاساس، وبالشكل العربى البحت جرى إنتخاب أول خليفة للرسول لزعامة المسلمين، ورئاسة الدولة الاسلامية.

وبالرغم من البساطة التى سار عليها المسلمون فى هذا، فان بعض الكاتبين يحاول أن يرجع هذا الانتخاب إلى نظريات وقواعد وإصطلاحات، قد لا تعرفها الجماعة العربية الأولى

---

(١) سيد أمير على فى تاريخ العرب والتمدن الاسلامى

حقيقة كانت المسألة شورى بين المسلمين ، وإلى جانبها الانتخاب الحر من أفراد الجماعة .

بيد أن هذا بعينه نظام القبائل العربية فى شكل التعيين لرؤساء القبائل ، إذا أهملنا مسألة الاقتراع . لان التطور فى الأوضاع لايستسيغها مع الاسلام . والقرآن ، وتعليق الكفاية على التضحيات السابقة فى سبيل الله ورسوله .

وعلى كل حال فقد كان شكل التعيين .زمن الراشدين. ينحصر فى أربعة أنواع ،هى ماحدث في تعيين الخلفاء الاربعة.

١ ـ الطريقة الاولى ، طريقة الانتخاب الشورى ، وذلك ماحدث فى استخلاف أبى بكر رضى الله عنه ، وقد فصلناه فى موضعه من مؤتمر السقيفة.

٢ ـ الطريقة الثانية ، ولاية العهد مع استشارة المسلمين ورضاهم ، واسناد العهد الى الاصلح من الجماعة بغض النظر عن قرابته للخليفة وعدم قرابته .

وهذا هو الذى وقع فى إستخلاف عمر بن الخطاب . اذ لما اشتد المرض على أبي بكر استدعى ذوى الرأى من

المسلمين واستشارهم في تولية عمر من بعده ، فكلهم رضى به وزكاه عند الخليفة فعهد أبو بكر الى عمر وليست بينه وبينه الا اخوة الاسلام وصحبة الرسول ، وان كانت تجمع الاثنين لحمه النسب في أن كلا منهما من قبيلة واحده، ولكن الاسرة مختلفة .

٣ ـ الطريقة الثالثة ، العهد بالخلافة الى واحد من جماعة محدودة يعينهم الخليفه ، ويعتبرون في نظر الجماعة خيرها وأفضلها وهذا الشكل نجده واضحا فى تعيين عثمان بن عفان إذ عهد عمر بن الخطاب الخليفة القائم بالامر حين أيقن الوفاة ، الى على وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى دقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمر وأوجب تعيين الخليفة من بعد فى واحد من هؤلاء يتفقون عليه عدا ابنه عبد الله . فنص عمر على أن رأيه يؤخذ على سبيل الاستشارة وليس له الحق فى الخلافة . وقد حدد عمر مدة يتحتم فيها البت فى أمر هذا التعيين ، كما أشار بقتل من يشق عصا الطاعة على الاغلبية اذا اتفقت على شخص يعينه .

وهذه الطرق الثلاثه السابقة ، كانت فى الواقع برضا المسلمين واختيارهم فى جملتها ، ولم يعرف حدوث ضغط على أحد ليرغم على رأى يخالفه حتى تنعقد كلمة الامة على خلافة. فعندئذ ذلك يجب ارجاع الفرد الى رأى الجماعة بالقوة ، فان أبى يجب قتاله .

٤ ـ ولكن بعد أن ثارت أمصار الدولة الكبرى على عثمان ، وقتل وبقى المسلمون بدون أمير مدة ، جدت طريقة رابعة نتبينها فى الشكل الذى اختير به على بن أبى طالب .

وذلك إنه بعد مقتل عثمان تحكم الثوار فى المدينة عاصمة الدولة الاسلامية ، وأخذوا يعرضون أمارة المؤمنين على المرشحين للخلافة ، فكلهم رفضها رفضا باتا ، حتى على نفسه ردها . ثم بعد أن يئس الثوار وخشوا أن يقوم زعيم من بيت الخليفة المقتول . فيجمع المسلمين على حربهم واستئصال شوكتهم عمدوا الى تخريب العاصمة وبث الفتنة والفساد ان لم يقبل على أو غيره خلافة المسلمين .

وفى هذا الجو . وبهذا الشكل توجه الثوار اليهوبايعوه بالخلافة وَرأى كبار المسلمين فى الدولة إن ذلك خير انقاذ للموقف . وان الامارة صادفت أهلها وخير المرشحين لهـا فبايع عليا طلحة والزبير وغـيرهما ممن كانو يطمعون فى الخلافة . وامتنع كثير من سادة المسلمين من البيعةلاعن شك فى كفاية على . ولـكن انتظارا لما يستقر عليه رأي الجماعه كلها بعد أن تهدا تلك الظروف الشاذة التى نجتازها الدولة بسبب قتل الخليفه .

على أن عليا نفسه كان يقدر جسامه العبء . ودقة الحالة فى الوقت الذى بويع فيه . ولا ينسى قولة السبئية بعد أول بيان أذاعه :

خذهاإليك واحذرن أبا حسن

أنا نمر الامر إمرار الرسن

صولة أقوام كاشداد السفن

بمشرفيات كغدران اللبن

وتطمن الملك باين كالشطن

حتى يمرون على غير عنن

فقال على مجيبا لهم آسفا على قبوله .

إنى عجزت عجزة لااعتذار

سوف أكيس بعدها واستمر

أرفع من ذيلى ما كنت اجر

وأجمع الامر الشتيت المنتشر

ان لم يشاغبنى العجول المنتصر

أو تتركوني والسلاح يبتدر

ولم يكن السبئية . وهم محركو الفتنة . كل مايشغل عليا . بل أن طلحة والزبير وعائشة مساهموا في إقلاق راحته ، الى جانب بنى أمية ومعاوية وظل على مدة خلافته فى نضال عنيف مع مختلف الاعداء المتباينى الاغراض والاهداف حتى استشهد في رمضان من سنة ٤٠ هـ

ويتلخص الشكل الذي عين به فى تغلب الثوار على الدولة وإسناد أمارتها إلى واحد من خيرة رجالها يأمنون الغدر

من جانبه ولو ردحا من الزمن .

هذه الطرق الأربعة هى التى حدثت فى شكل التعيين للخليفة فى عصر الراشدين ، وفي جميعها توفرت الشورى ووجد الانتخاب وكانت البيعة ، وأسند الأمر الى ذى الكفاية .

أما ماقد يرى من بعض النقص فى حريه التعيين كما حدث في بيعة الاربعة على العموم ، فلم يكن مثير النقد ذى بال فى أيامهم لأن المهم أن يكون أمير القوم أصلحهم وهذا هو الذى كانو يرجونه .

ومن ثم كانت حكومة الراشدبن أصلح سائر الحكومات الاسلامية فى دولة الاسلام بعد العصر النبوى الكريم ،

ذلك أنه حدث بعد على أخر الراشدين أن تغلب معاوية على الحسن وتنازل هذا اليه وأصبح معاوية أمير المؤمنين ، بالغلبة والنفوذ ولما كبر وأحس بقرب الوفاة عهد بالامر من بعده لابنه يزيد واستعمل فى التوسل الى ذلك ضروبا

من القسوة والدهاء مالا يكاد يفكر فيه واحد من الاربعة الراشدين . وبذلك سن ولاية العهد فى أمارة المؤمنين لغير الاصلح ، والاقدر على تحمل الاعباء مع وجود الكفء القدير من غير بنيه أو أسرته .

وعلى الجمله فان الخلافة بعد الراشدين أصبحت ملكا وراثيا يرثه الابن عن الاب ، ولو كان الاخير طفلا لايقوى على النهوض بمصالحه الخاصة ، واستمرت سنة معاوية طوال عهود بنى أميه وبنى العباس وانتقلت الى المتغلبين فى مختلف أقاليم الخلافة فى المشرق والمغرب مما سنعرض له بالتفصيل فى الاقسام التالية من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

* * *

نظريات الفرق

رأينا فيما سبق تشعب الطرق فى اختيار خليفة المسلمين ، وأوضحنا السبب فى هذا ، وأرجعناه الى مجرد التقاليد العربية ، والمبادىء الاسلامية فى الشورى والتضحية .

بيد إننا حين نساير الزمن ، نرى الكتاب فى التاريخ بعد عصر الراشدين يسجلون ثلاث مذاهب فى الخلافة أبان خلافة الاربعه ، ويقولون انها عبارة عن أراء كان يراها الناس منذ خلافة أبى بكر حتى خلافة على ، وهاهى ذى

(١) الرأى الديمقراطى أو الجمهورى ، وهو أن تكون الخلافه فى أى شخص يقع عليه اختيار الناس من أى بيت أو بلد ولو كان عبدا حبشياً ،وذلك رأى الخوارج [(١)] ويقول المرحوم الخضرى انه أيضا رأى الانصار من قبل [(٢)] وقد أشرنا الى أن الانصار قوميون ملكيون لا جمهوريون أما الخوارج – ولم تكن لهم أراء فى الخلافة حتى أواخر عصر على – فانهم جمهوريون بالمعنى الكامل أى أنهم يسيرون على النص الحرفى للحديث « اسمعوا وأطيعوا وأن تأمر عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة » فهم يقولون أن الواجب أن يختار المسلمون أيا كان ممن يرضونه لدينهم

---

(١) يلاحظ أن الخوارج وجدوا فى أواخر خلافة على (٢) المحاضرات ج ص ١٥٩ .

ودنياهم ولو كان عبدا حبشيا ، وانه من الضرر قصر الاختيار على طبقة معينة من المسلمين ، ولو كانت قريشا نفسها

أما الانصار فان رأيهم واضح ، وهوانهم أحق الناس بامارة المؤمنين ، وان الخلافة يجب أن تكون فى طبقتهم باعتبارهم أصحاب العاصمة الاسلامية من جهة ، وباعتبار الرسول - وهو الرئيس الاول للمسلمين ظل بينهم وأسس دولته فى موطنهم ، وصرح كثيرا لهم بانهم ورثته وأصحاب الامر بعده فطبقة الانصار لهذا هى محل انتخاب أمير المؤمنين ، ولاينبغى ان يفكر أحد فى طبقة أخرى إلى جانبها - وهذا يبدو واضحا فى خطاب الحباب الاخير [1] فالانصار على هذا ليسوا من القائلين برأى الخوارج حتى يعتبروا اسلافا لهؤلاء فى نظريتهم فى الخلافة

والرأى الثانى هو رأى التخصص بطبقة معينة ، وهى قبيلة قريش نظرا لماضيها فى زعامة العرب ، ورعاية الكعبة والبيت الحرام التى يعظمها جميع العرب وهذا الرأي كان

(١) انظر الطبرى فى تاريخ الامم

يقول به كبار المهاجرين مثل أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من المسلمين عدا عليا وبنى هاشم وقد انتصر هـذا الرأى بانتخاب ابى بكر خليفـة وظل منتصرا حتى سنة ١٣٢ هـ حيث قامت خلافة العباسيين ، وهم من أنصار الرأى الثالث الذى نوجزه بعد .

٣ — والرأى الثالث هو رأى التخصص بطبقة خاصة من قريش وهى القرابة القريبة من الرسول من بنى هاشم وكان يراد بها فى عهد الراشدين على وابناؤه ، ولهـذا سلك ابن السوداء وشيعته سبيل الدعاية لعلى وسيلة للطعن فى عهـد عثمان ، ووضع كثيرا من الاحاديث أسندها الى رسول الله ظلما وعدوانا وهذا الرأى انتصر بعض الانتصـار بولاية على وابنه الحسن وكان انتصارا تحوطه الآلام والاشواك من كل جانب حتى قضت عليه سياسة معـاوية ، وارجعت الامر الى يوم السقيفة فاصبحت الخـلافة فى قريش عامة ، وَان فقدت في معاوية كفاية ابى بكر ، ونعوته المفضلة لدى (الرأى العام)

هذه هى الآراء الثلاثة التى سيحلها التاريخ اعتمادا على مابدا من تعيين الخلفاء الاربعة ، والجو الذي تولوا فيه

على ان من الحق ان نقرر ان النظريات الثلاثة التى اسلفناها ترجع فى جوهرها الى نبع واحد ، وهو القول بوجوب تعيين الطبقة التى يكون منها خليفة المسلمين ، فالانصار يرون تعيينه من طبقتهم ، والقرشيون بوجه عام يرون وجوب نصب الخليفة من قبيلتهم

وآل البيت يرون أنفسهم أحق الناس بخلافة الرسول باعتبارهم ورثته وادنى المسلمين قرابة اليه ، والكفاية موفورة فى بعضهم مثل على والعباس

ومن الغريب أن ابابكر احتج على الانصار بحجة آل البيت ، وان الانصار لايصح ان يرثوا حقا مع وجود من هم أقرب منهم ، ولذلك نرى عليا يحتج على أبى بكر وشيعته بما احتج به ابو بكر على الانصار

سمع على بما حدث من المهاجرين في السقيفة واحتجاجهم

بالقرابة من الرسول ، فقال على : احتجوا بالشجرة وتركوا الثمرة فى حوار طويل سجله ابن ابى الحديد [١]

أما بعد . فهذه خلاصة لآراء الفرق فى ذلك العصر وكلها تدور حول الناحية السياسية وحدها

أما ما ظهر بعد ذلك من فرق منظمة لها نظريات فى الدين والسياسة والاخلاق والاجتماع ، فانها خارجة عن موضوع بحثنا

ولكن نرى أن نشير - فى ايجاز - إلى مذاهب يظن انها من صنع ذلك العصر وليست من عمله

وأول هذه الفرق أهل السنة والجماعة ، ومذهبهم فى الخلافة لا يخرج عما ابرم فى السقيفة من جعل الخلافة فى عموم بطون قريش

ومن هذه الفرق المتأخرة أيضا الشيعة وقد بنت مذهبها على الارث والوصية ، ومن ثم قالت ان عليا هو الخليفة الحق بعد الرسول وان غلب على أمره ، ثم اقترقت

افترقت

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد

الى شعب كثيرة اختلفت فى نظرياتها ومبادئها ، ولكنها جميعا تدعو لآل البيت الاقربين

كذلك نرى فرقة أخرى جدت فى العصر الأموى هى المعتزلة ، وهؤلاء لم تخل مبادئهم من التعرض للسياسة العليا وخلافة المسلمين ، وافترق المعتزلة كالشيعة إلى فرق وأحزاب كثيرة يقول الخضرى بك .

تناول العلماء فى الدولة العباسية مسألة الخلافة وادخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ، ويخيل الينا ان أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة ، فان الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليه المستكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

١ - وجوب نصب الامام . أهو واجب على الامة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ، أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ، أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة . أو على الله لحفظ قوانين الشرع . كما هو رأى

الامامية ، أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الاسماعيلية أولايجب كما هو رأى الخوارج ، أويجب عند الأمن دون الفتنة كماهورأى هشام الفوطى واتباعه ، أويجب عند الفتنة دون الامن كما هو رأى الاصم ومن شايعه من المعتزلة .

استطراد يبحث على المبل !

٢ ـ شروط الامامة . وقد عدوا منها شروطا لاخلاف فيها ، ومنها شروط فيها الخلاف ، كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعه والعلم بجمع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعه

٣ ـ ماتثبت به الامامة . وهو النص من رسول الله أو عن الامام الموجود وبيعه أهل الحل والعقد ، خلافا للشيعه ثم قالوا لايحتاج الأمر الى اجماع أهل الحل والعقد ، بل يكفى الواحد والاثنان وقال بعضهم لابد أن يكون ذلك أمام بينه عادلة ؛ وهل يجوز تعدد الأئمة أولايجوز ، وهل يجوز خلع الامام . ولأى شىء يكون ذلك .

٤ ـ من هو الامام الحق بعد رسول الله أهو ابو بكر أم على

٥ ـ من هو افضل الناس بعد رسول الله

٦ ـ ماحكم امامه المفضول مع وجود الفاضل

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الاحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية . لان هؤلاء يتجادلون بأسنة الاقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم واولئك يحكمون صفحات الحسام ، ولايلقون بالا لتلك المناقشات كان شأنها لايهمهم [1]

وفى القرن الرابع عشر الهجرى جدت فرقة اوروبيـة مسيحية ، وهى فرقة الحكومة الثلاثية ، وخلاصة رأيها ان أوَل حكومة اسلامية بعد وفاة الرسول تأسست على مؤامرة ، قام بدور البطولة فيها عائشة زوج الرسول ، وابو بكر والدها وعمر وابوعبيدة صديقا ابى بكر ، وقد نجحت تلك المؤامرة إذ تولى أبو بكر وعمر وابوعبيدة

١ ـ انظر المحاضرات ص ١٩٧

زعامة الدولة الاسلاميـة وقد كان ابو بكر هو الذى يحمل لقب الخليفه ، وعمر يصرف شئون القضاء ، وابو عبيـدة قيادة الجيش ، فلما توفى ابو بكر تولى الخلافة عمر ، ولو أمد الله فى أجل ابى عبيدة لاصبح الخليفة بعد عمر (٢)

ومع ان رأى هذه الفرقة يحمل فى طيـاته ، مايقطع باختلاقه ، إذ لاسند لهذه القولة من التاريخ ولا من الواقع فوق انها صدرت عن تعصب للعـاطفة والجنس ، مما يحمل رأيها ادنى الى القدح والطعن منه والى الحق والتاريخ فاننـا سنوجز خلاصة المستندات التى استند اليهـا هؤلاء ، ثم نعقب بالرد عليها

وتتلخص أهم الاشياء التى ايد بها المستشرقون نظرية التآمر فيما يأتى :

شبه المستشرقين

أولا ـ ماحدث من مراجعة عائشـه لرسول الله فى مرض موته حينما طلب ان يصلى ابو بكر اماما بالناس بدله

---

٢ ـ انظر الحكومة الثلاثية للاب لامانس والخلافة لتوماس ارنولد ومقال للاستاذ عبد الحميد العبادى بمجلة الثقافة

فيقولون ان الرسول ماطلب ابا بكر إلا بايعاز من زوجه عائشة ابنة ابى بكر . وذلك من عائشة يعتبر تمهيدا ليكون أبوها خليفة على المسلمين لرسول الله بعد وفاته

ثانيا — رفض ابى بكر ان يسلم فاطمة ميراثها من أبيها مخافة ان يتطرق الأمر إلى فتح باب ميراث الخلافة حق آل البيت المقرر

ثالثا — مجانبة ابى بكر لأوامر الرسول التى منها «لكل نبي وصى وعلى وصى محمد»

رابعا — مغاضبة ابى بكر لآل بيت الرسول وهجرانهم مع ان صلتهم وحبهم مفروض على جميع اتباع محمد

خامسا — تولية ابى عبيدة القيادة العامة للجيوش الاسلامية فى خلافة عمر بعد تولية عمر خلافة المسلمين ، وتنحيه الى البيت عن مقاليد الحكم فى الدولة الاسلامية

هذا إلى جانب ان هؤلاء الثلاثة قد ذهبوا إلى السقيفة ولم يخطروا احدا من آل البيت ليبرموا أمر الخلافة سرا فى غيبة آل البيت المشغولين بوفاة الرسول حتى استطاعوا

ان يظفروا ببيعة المسلمين فلما تمت البيعة لم يجد على مجالا للاحتجاج بل غلب على امره وسكت على مضض

على ان مظاهر القسوة والاستبداد التى ابداها زعماء الحكومة الثلاثية مع آل البيت تؤيد بوضوح وجود تلك المؤامرة واسفارها عن طوية الحكم الثلاثى الذى استبد به ابو بكر وصاحباه على آل البيت أصحاب الحق وحدهم في خلافة نبيّهم

تلك خلاصة لأهم الشبه التى اخذ منها القائلون بالحكومة الثلاثية نظريتهم

أما ردنا على مزاعم هؤلاء ، فاننا نجمله فيما يلى :

١ — مسأله رأى النبي فى اسناد امامة المسلمين فى الصلاة الى ابى بكر لم تكن ناشئة عن تدبير عائشة ، بل هى مسألة شخصية للنبي الذى لا ينطق عن الهوى وانما يصدر فى جميع تصرفاته عن السماء ووحى الله

على انه ثابت - فى التاريخ الصحيح - ان عائشة لم تكن مخادعة فى مراجعتها للرسول ، وانما كانت جادة كل الجد ،

وصريحة إلى أقصى حـدود الصراحة ، كما هو معروف من خلقها .

كذلك ثابت من القصة التى سجلها المؤرخون الثقات ان عائشة كانت تبغى صرف الامر عن أبيهـا لا اسناد الأمر اليه

وهذا يحتاج بطبيعة الحال إلى دراسة دقيقـة للعصر الذي عاشت فيه عائشة وأبوها . وهؤلاء التآمريون جهلة بتاريخ العصر النبوى ، وروحه وخلق رجاله . ومن ثم كانت فريتهم على خير قوم أنجبهم تاريخ البشرية

على ان الذين قرأوا شيئا من تاريخ سلف المسـلمين يدركون مدى ما كانوا عليه من خلق ودين شـهد به الد الاعداء قبل اخلص الاصدقاء

ولـكن ماذا نفعل بقوم يقدسون الصور ويعبـدون التماثيل ولا يـورعون عن طعن رجال نشروا المدنية وأسعدوا الـكون . ولاذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله لا المسيح ولا العذراء اللهم هذا بهتان عظيم

٢ — وأما عن منع ابى بكر فاطمـة من ميراثها ، مما رتب عليه هؤلاء رمى الصديق بالتآمر ، فلم يكن ابو بـكر يبغى من وراء ذلك سد الذريعه حول مسألة الخـلافة - على فرض صحة هذه الرواية فان أبا بـكر لم يمنع الميراث من تلقاء نفسه ؛ ولـكن لان الرسول نص على هذا المنع بدليل الحديث الذى رواه لهم كما فى الرواية التى اوردها القائلون به

على ان هذه الرواية ليست من الصحة بحيث يترتب عليها ذلك الجدل الـكثير الذي اثير حولها

فان الظاهر من اسلوبها انها من وضع الشيعة الغلاة وليست من الاخبار التى يمكن الاعتماد عليها فى اثبات حقيقة تاريخه

٣ — مايزعمه هؤلاء من ان أبا بكر جانب النصوص الاسلامية مثل حديث الوصية الذى يذكرونه ، جهل بالتاريخ فان علماء الاسلام ابانوا فى صراحة وحزم وضع هذا الحديث، وكشفوا عن واضعه وهو عبد الله بن سبأ اليهودى . ولايعرف التاريخ الصحيح ان أحدا من سلف

المسلمين كان يسمع بهذا الحديث حتى كانت فتنة عثمان ونشأت المبادى السبئية وذاعت مطاعنهم فى عثمان وامرائه، والدعاية لآل البيت كستار لهدفهم الوحيد وهو القضاء على الدولة الاسلامية.

٤ — أما عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر، وتعيين عمر أبا عبيدة قائداً عاماً للجيش، فقد كان برضا آل البيت والمسلمين عامة، ولم يثبت أن عليا ولا غيره أظهر استياءه من هذا الصنيع. بل على العكس كان سرور المسلمين ومنهم آل البيت. لا يقدر حينما علموا بما صنعه أبو بكر، ورأوا في ذلك عين الصواب والسداد.

على أن هذا لا يعطى تآمر أبي بكر وصاحبيه كما يزعم المستشرقون بل يفيد أن الرجلين تآمرا بكفايتهما وفضلهما وسلوك هؤلاء معروف لدى جميع المسلمين، حتى الشيعة والخوارج يترضون عن أبي بكر وعمر، إلا نفرا من السبئية اليهود، وبعض الرافضة من الشيعة فمن أين استقى الثلاثيون هـذه المعلومات، وكيف ساغ لهم أن يفتروا على الحق

والتاريخ بدعوى التجديد فى التاريخ إلا أن هؤلاء المستشرقين ومن لف لفهم من الشرقيين والغربيين قوم متحاملون يعمدون إلى كتب الرافضة والغلاة ويستقون منها معلوماتهم ثم يسلطون عليها تعصبهم وجهلهم بالعربية والتاريخ، ويخرجون للناس نظريات هي مزيج من الجهل والرفض والتعصب، ويصوغونها بأساليبهم ولغاتهم زاعمين أنها الحق الذى لامرية فيه، ويقولون لقومهم أنهم قد أخذوا هذه الحقائق من كتب المسلمين، وإن استشراقهم يحسن الظن بهم .. وسبحان الله، فلولا أن أمثال العبادى [1] عرب هذه الفرى للرد عليها، ما عيننا بتسويد حرف واحد فى تفنيدها.

***

حكومة الراشدين

نظام الخلافة الاسلامية، يعتبر من غير شك نظاما سياسيا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، ولذلك فاننا سنحاول أن نتعرف نوع هذا الضرب من الحكم، حتى نستطيع أن

---

(١) الاستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ للتاريخ الاسلامى بالجامعات المصرية وهو رجل حجة فى التاريخ، ومعروف فى يوم والفضل حتى الآن

تقدر سلف المسلمين ، وهل كانوا مبتكرين حقـا حتى فى السياسة ، أم أنهم كانوا عالة على الأمم التى سبقتهم ثم ماهو السبب فى عزوف المسلمين عن اتخاذ نظمهم السياسية عن الدول العظمى في أيامهم .

٢ سبق المسلمين الأول ، شعوب لها حضارات وتقاليد ، وقد اتخذت تلك الشعوب لنفسها نوعا من الحكم يلائمها . فالفرس مثلا كان نظامهم الحكومى : ملكيا وراثيا إستبداديا مطلقا : وكذلك الحال عنـد الرومان فى الشرق والغرب . والملك عند هؤلاء سيـد الشعب وراعيه ، وكلمته قانون ، والمخالفة له حتى فى طاعة الله تعتـبر جريمة توجب أزهاق الروح ، والدين منفصل عن السياسـة فللمجوس بيوت نيرانهم ، وطقوسهم ، ولا دخل لهم فى سياسة الشعب إلا أن يحثوه بالدين على العبودية لمولاهم الحـاكم بأمره ، وذلك عند الفرس أما عند الرومان فيتمثل رأيهم فى تلك الـكلمة « دعوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » فالمسيحية فى الكنائس وأما السياسة فهى من شأن الحكومة المشرفة على الشعب

ولا يمكن أن يتدخل الدين المسيحى فى سياسة الحكومة ، بل ذلك متروك للقوانين التى هى ـ فقط ـ من وضع الحكومة ورسم الامبراطور. ومن ثم كان جهل رجال الدين ، بالشئون السياسة ، والقوانين الوضعية وكل ما يمت إلى الحكومة بصلة ، حتى لقد ذاع بينهم أن قبول الوظائف من رجال السياسة يعتبر جريمة لا تغتفر . لأن رجل الدين من أول ميزاته العمل على تخريب الدنيا ، وتعجيل فنائها ، ومن شأن الحكومات أن تصلح وتعمر ، مما يطيل بقاء الحياة ، ويمد فى أجل الوجود الدينوي .

ومن هنا نرى ظاهرة غريبة في العصور الوسطى . وتلك هى كثرة الأديرة وانتشارها فى العالم المسيحي ، فرارا من الدنيا ، وانتظارا لخرابها فتقوم الساعة وهم منقطعون لعبادة الله ، وذاع مما ذاع بين المسيحيين أن الدنيا سوف لا تبلغ أكثر من ألف عام ويضع مئات لا تصل إلى الألف الثانية ، وإن خراب العالم أصبح قاب قوسين منهم [١] .

---

(١) أنظر العصور الوسطى للدكتور مصطفى زيادة (مذكرة كلية أصول الدين ـ تخصص المادة) .

نقول أن فصل الدين عن السياسة ، ترتب عليه تسرب اليأس إلى نفوس المتدينين لبعدهم عن الحياة العامة وانعزالهم فى سجون الكنائس والأديرة والبيع . . وهذا ما كان عليه حال الشعوب المعاصرة للمسلمين شرقا وغربا على أن الحكم الوراثى الاستبدادى ، كان من أهم العوامل في اضمحلال دولتى الفرس والروم ، مما عجل بالقضاء على هذا النظام الذى لايصلح إلا للسوائم فى عصور العبودية والجهل

كان إلى جانب ذلك قوم فى أوروبا الشرقية الجنوبية ، فرغوا أنفسهم للبحث والدراسة ، وكونوا لهم نظريات فى العلم والسياسة ، وأولئكم هم اليونان فقد بحثوا فى الملكية والدكتاتورية ، والجمهورية ، والديمقراطية ، وأسسوا في بلادهم نظاما من الحكم قائما على أساس نظرياتهم ، وكان جملة ذلك يرجع إلى ضربين منه يقومان فى أثينا وتغلب عليه الصيغة الديمقراطية وفى أسبرطه ، وتبدو فيه قسوة الدكتاتورية .

وعلى الجملة ، فان نظام الخلافة الاسلامية سبقته

وعاصرته أنظمة حكومية مختلفة .وكان فى استطاعة المسلمين أن يقتبسوا نوعا من تلك النظم لو أرادوا ولكن لم يفعلوا . بل أنهم عمدوا إلى ذلك النظام الحكومى (الخلافة) واختاروه لهم دون سواه .

على أننا ـ نرى إلى جوار نظم الحكم فى الفرس والرومان واليونان ـ نظام القبائل العربية ، وكان يقع اختيار القبيلة على أكبرها سنا ، وأعظمها جاها وأكثرها مالا وعصبية فى بطونها ، فيسندون إليه رئاسة القبيلة والأساس فى هذا الانتخاب من جميع أفراد القبيلة .

وعلى هذا فماذا يمكن أن يكون نظام الخلافة الاسلامية هل هو ملكى مطلق أو مقيد . أو هو جمهورى ، أو دكتاتورى أو ليس واحدا من هذه الأنواع ، بل هو نظام قبلى عربى أم هو نوع متفرد عن سائر الأنظمة السابقة ابتكره المسلمون. وفقا لتعاليم الاسلام ومبادئه العامه . مستعينين في ذلك بنظام القبائل العربيه التى نشأ الاسلام فى أحضانها .

إن المتتبع لتاريخ الاسلام . وانتخاب الخليفه الأولى

والبيانات التى أذيعت من السقيفة ، والطريقة التى سار عليها الخلفاء الاربعة فى تعيينهم لا يكاد يشك فى أن الخلافة كنظام سياسى هى مزيج من تقاليد العروبة وتعاليم الاسلام .

وعلى ذلك فالخلافة الاسلامية ليست نظاما ملكيا ولا جمهوريا . بل هى الخلافة الاسلامية .. وكفى

نظام الشورى

كانت مقاليد الحكم فى عصر الخلفاء ، فى يد الخليفة . ويساعده في تصريف مهام الدولة مجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الاولين وكانوا يعقدون اجتماعاتهم فى الجامع الكبير ، يساعدهم غالبا جمع من الاشراف ورؤساء البدو الذين كان يتفق وجودهم فى المدينة كذلك كان الخليفة يسند إلى كثير من الصحابه أعمالا خاصة . فولى عمر القضاه وتوزيع الصدقات . واسند إلى على تحرير الرسائل والاشراف على الاسرى . وولى بعض الصحابه أمر النفقة على الجنود .

وعلى الجملة كانت تبذل أقصى العناية فى جميع شئون

الدولة ، ولا يفصل فى شىء الا بعد أخذ رأى مجلس الشورى (١) .

فنظام البرلمانات الحديثة . ليس بدعا فى تعرف إرادة الشعب بل أن العرب فى جاهليتهم عملوا به . ثم جاء المسلمون فنقحوه وأضافوا اليه بعض التعديلات التى استلزمتها مدينة الحياة وناموس التطور ، وظل المسلمون فى أرقى عصورهم يعملون بنظام الشورى ، حتى طرأ عليهم ماطرأ على كثير من الامم من الضعف والانحلال . فعند ذلك فقط هجروا الشورى ، واستساغوا الاستبداد وبذلك عادت الحياة جاهلية ظالمه ، حتى نقل أهل أوربا تعاليم الاسلام وتدارسوها وعرفوا أثرها فى قوة المسلمين ، فعملوا بها ونفذوها في أقطارهم لكن على أنها من وضعهم وتجاربهم . والحقيقه السافرة تنادى بأنها من وضع اسلاف المسلمين وعملهم .

* * *

الاذارة — لما فتحت مكة ، وخضعت جزيرة العرب للمسلمين ،

---

(١) سيد أمير على فى تاريخ العرب (بالانجليزة)

اختار الرسول أمراء على الامصار الكبرى ، وضع فى أيديهم السلطات المدنية والعسكرية وفوض اليهم الفصل في الخصومات فى الاقاليم التى ولوا عليها

على أن المؤرخين يعتبرون « عمر » المؤسس الحقيقي للادارة السياسية في الاسلام . إذ قسم البلاد الى أمارات وولايات لكى يتفرغ أمراؤها وولاتها الى ترقية مصادرها فاعتبرت الاهواز والبحرين أمارة واحدة . وسجستان ومكران وكرمان ولاية وأصبحت طبرستان وخراسان ولايتين مستقلتين . وولى ثلاث أمراء على جنوبى فارس كما جعل فى العراق أميرين أحدهما فى البصرة ، والاخر بالكوفة .

وفى الشام جعل القسم الشمالى منه ولاية وعاصمته (حمص) والقسم الجنوبى ولاية (دمشق) وجعلت فلسطين ولاية مستقله .

وفي أفريقية ثلاث أمارات ، واحدة فى مصر العليا ، والاخرى في مصر السفلى ، وثالثة فى ليبيا .

وأما جزيرة العرب ، فقد قسمت إلى خمس ولايات ولاية مكة وولاية الطائف ، ومنطقة صنعاء ، وولاية البحرين وما والاها وولاية الجند . أما المدينة فكان بها كرسي الخلافة والحكومة المركزية فهي العاصمة الكبرى للخلافة الاسلامية .

وكان يطلق اسم الوالي والنائب على حكام الولايات الصغرى . أما الكبرى فكان يطلق على ولاتها اسم الامير وكان الحاكم في معظم الولايات بحكم منصبه يصلي بالمسلمين ، ويلقي خطبة الجمعة التي كانت تعتبر في الغالب بيانا سياسياً وعين عمر لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين قضاة للامامة في الصلاة ، والنظر في الاحكام . وانشأ ادارة مالية باسم الديوان لتنظيم جمع الايرادات وصرفها . وكان القسم الاعظم منها يستنفد في سد النفقات الادارية والحربية ثم يوزع الباقي على أفراد المسلمين . ولهذا أمسكت سجلات خاصة في الديوان لتسجيل أسماء جميع المستحقين .
وكان الامير هو الرئيس الاعلى في ولايته - واليه يرجع الفضل

فى الامور العسكرية والمدنية أما الامور المالية والادارية فكان يدير شئونها موظفون قديرون يعينون خصيصا لهذه الغاية . كذلك كانت الحكومه توجه أقصى جهودها لترقية حالة الفلاح ، وتحسين الصناعه . فمسحت الارض حقلا حقلا ، ووضعت الجباية فى مصر والشام والجزيرة وفارس ، على أسس ثابتة منتظمة .

وكان عمر أول من عين راتب القضاة المعينين من قبل الخلافة ، وفصل دوائرهم عن الدوائر التنفيذيه ، وأطلق عليهم اسم حكام الشرع وهكذا كانت الادارة الاسلامية منذ أوائل عهدها تعترف قولا وعملا بنظرية الفصل بين القضاء والسلطه التنفيذيه وكان القضاة مستقلين فى أحكامهم والكل فى تظهرهم سواء وكان الخلفاء يتحينون الفرص ليتظهروا للشعب انهم من أول يخضع لحكم القضاء

ومن الامور التى كانت منذ عهد عمر وجود جند للحراسة ، وأما الشرطة فلم توجد بهذا المعنى الا منذ عصر على بن أبى طالب .

كذلك الجباية كانت تسير على نظام محكم ، فقسمت الى ثلاثة أنواع .

(١) الاعشار أو الزكاة ، وتؤخذ من أغنياء المسلمين ، وتفرق فى الجيش والموظفين المستخدمين فى جمعها وللفقراء من المسلمين متبعين فى ذلك نص الكتاب « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »

(٢) ضريبة الارض التى تفرض على الذميين ، وكانت تسمى الخراج .

(٣) ضريبة الاعناق أو الجزية ، وكانت معروفة عند الروم بنفس الاسم ، وموجودة عند الفرس في حكم الساسانيين بيد أن المسلمين ادخلوا عليها تعديلات ، وهذبوا من قسوتها وحوروها ، ففرضها الاسلام بالعدل ، وأعفى بعض الذميين من دفعها مثل الفقراء الذميين الذين لا يشق عليهم اداؤها . ولذلك عومل أهل الكتاب من اليهود والنصارى بكل عدل وانصاف لم يحلموا به فى حكومات كسرى ولا قيصر .

كان الجيش العربى مكونا عادة من جنود البدو الجيش المرتزقة ، ومن متطوعى المدينة والطائف وبعض المدن الاخرى . وكانت مرتباتهم تدفع من الاعشار ، ثم أصبحت تدفع من الاعشار والجزية .

وكان الخليفة يعين القائد العام الذي كان يختار الضباط بنفسه ، ويؤم المصلين فى الصلاة .

وكان الجيش يتألف من المشاة والفرسان ، وكان الفرسان يتسلحون بالدروع والسهام والنشاب ، كما كان رماة السهام يؤلفون العنصر الغالب فى فرق المشاة الذين كانوا يتألفون من ثلاثة صفوف يتقدمهم عادة حاملو الرماح لصد هجمات فرسان العدو ثم يليهم حاملو السهام . أما الفرسان فكانوا يقفون على الميمنة والميسرة .

أما معسكرات الجيش فكانت فى أول الامر عبارة عن اخصاص مصنوعة من جريد النخل ، ثم شيدت محاط عسكرية دائمة فى انحاء الدولة . كذلك أقيمت حاميات قوية فى المدن التى ليس بها نقط عسكرية ثابته .

وكان أفراد الجيش يلبسون الدروع المصنوعة من السلاسل ويضعون على رؤوسهم الخوذ الفولاذية التى كانت تزين غالبا بريش النسور. وكانوا جميعا يسيرون الى ميادين القتال وهم يتلون كتاب الله، ويكثرون ذكره عند الهجوم وكانوا يستعملون الطبول. ويحملون معهم نساءهم وأولادهم فى كثير من الاحيان، وخصوصا بعد انشاء مساكن خاصة فى المحاط العسكرية.

وعلى الجملة. فان النظم التى سار عليها الخلفاء الاربعة من أحسن ماعرف فى عهدهم. كما أن عمر كان المؤسس الحقيقى لتلك النظم. بل أن سياسته فى الدولة أثرت فى أخلاق الشعب الاسلامى. حتى بعد وفاته.

كان عمر شديد الغيرة على العرب والعروبة. فعمل على اجلاء جميع العناصر غير العربية عن بلاد العرب. ووجه المسلمين الى عدم التطرف فى الفتح والتوسع ؛ كما حظر على العرب الاشتغال بالامور الزراعية خشية أن يركنوا الى الارض ويسكنوا اليها.

ولقد كانت سياسة عمر نحو الموالى : سببا فى أثارة كثير منهم حتى أنه قضى نحبه بيد مولى من هؤلاء. فى الوقت الذى كان شديد الحدب عليهم ، وان كان يحب طردهم من شبه الجزيرة .

ولكن دسائس الموالى التى حذر منها عمر . أصابت عمر نفسه فكانت فيها حياته .

بيعة السقيفة واستخلاف أبى بكر

وفاة رسول الله . مؤتمر الأنصار - بيعة أبى بكر - تقدير أبى بكر .

وفاة الرسول

فى يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) إختار نبى الله جوار ربه وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وقد كان الرسول فى حياته يضطلع بالقيام بأمرين خطيرين .

أحدهما لا يستطيع القيام به غيره وهو تلقى الوحى عن الله وتبليغه إلى الناس ، والثانى القيام بأعباء الشئون الدنيوية المتعلقة بالنفوذ السياسى والادارى والعسكري وكل مايختص بالتنظيم العام لشتى شئون الدول والأفراد فى حياتهم العامة والخاصة فلما نعى الناعى رسول الله ، جزعت نفوس المسلمين واهتزت قلوبهم لهذا الحادث الجلل ، فلم يقو على الصبر على ألم ذلك الخطب الجسيم إلا رجل واحد هو أبو بكر الصديق

رضى الله عنه ، أما باقى المسلمين فقد جزعت نفوسهم ، فهذا عمر بن الخطاب يقوم خطيبا فى الناس ويقول : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى - وإن رسول الله والله مامات - ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب أربعين ليلة عن قومه ثم رجع بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات :

وهؤلاء سادة الأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبادة والحباب بن المنذر يدعون إلى مؤتمر عام للأوس والخزرج فى سقيفة بنى ساعدة ليحددوا موقفهم من المهاجرين الذين يطمعون فى رياسة المؤمنين بعد رسول الله . وهذا فيما نظن لم ينشأ إلا بسبب جسامة الصدمة بوفاة رسول الله أحب الناس إلى قلوبهم جميعاً .

أما أبو بكر فانه حين وفاة الرسول كان بالسنح من ضواحى المدينة فلما بلغته الوفاة أسرع إلى المدينة حتى نزل على باب المسجد ، فوجد عمر يخطب الناس بما أسلفنا ، فلم

يلتفت إليه ، ودخل على رسول الله فى بيت عائشة . ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه بردحبره . فأقبل حتى كشف عن وجهه . ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا . ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج . وعمر يكلم الناس ، فقال له أبو بكر على رسلك يا عمر ، أنصت . فأبى عمر وواصل كلامه ، فتركه أبو بكر واتجه إلى النـاس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس . من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . ثم تلا قول الله تعالى : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئـا وسيجزى الله الشاكرين [(١)] .

بهذا أعلن أبو بكر وفاة رسول الله ، وآمن الناس بالله

---

(١) الطبرى حـ٣ ص ٢٠٥

ثم بوفاة رسوله الكريم وأخذوا يعيدون قراءة الآية الكريمة التى تلاها أبو بكر، وثاب عمر إلى رشده وعرف أن الرسول حقيقة قد مات وكان يوما على المؤمنين من أشد الأيام بل أشدها وأفظعها فى حياتهم كلها :

وقبل أن ننتقل بكم إلى حديث السقيفة يحسن أن أن نشير إلى مواقف لأبى بكر تتعلق بوفاة الرسول. وتشهد لهذا الرجل بالعلم والرسوخ وفى مقدمتها حفظه عن الرسول معنى قوله : ما مات نبى إلا دفن حيث مات . . وقد رواه أبو بكر للناس حينما اشتد خلافهم فى الموضع الذى يدفن فيه الرسول حتى كادت تكون فتنة كذلك موقفه فى الردة وبعث أسامة مما سنفصله فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

مؤتمر الأنصار

أما عن مؤتمر الأنصار وحديث السقيفة بعبارة أسلافنا من مؤرخى العرب ، فان حديثنا عنه ينحصر فى نقطتين .

١ — أولا وصف هـذا المؤتمر والأسباب الدافعة إلى انعقاده .

٢ — ثانيا النتائج النظرية والعملية التى نجمت عنه خطورة هذه النتائج فى الدولة الاسلامية فيما بعـد بيد أننا قبل الكلام عن النقطتين السابقتين نرى أن نوجز جملة عن السقيفة التى كانت مكانا لهذا الاجتماع .

سقيفة بنى ساعدة

كانت تلك السقيفة مجاورة لسوق المدينة ، وهى عبارة عن ظلة كبيرة مبسطة الجوانب ، وتقع فى أرض بنى ساعدة ابن كعب من الخزرج وكانت من الأمكنة التى اعتاد أهل المدينة الاجتماع إليها والتشاور فى شئونهم . الخاصة والعامة فكأنما هى ناد يشبه دار الندوة لدى قريش فى مكة ولقد كان لهـذه السقيفة فى توجيه الملك الاسلامى أثر بعيد الغور لا يقل عن أثر ثور أو حراء فى توجيه الرسالة المحمدية مع فارق واضح وهو أن ثورا وحراء يتصل أمرهما بأقدس رسـالة أنزلها الله عـلى أشرف انسـان خلقـه الله . والسقيفة

أمرها متصل بسياسة الدنيا وحماية الدين، ولكل خطره ولكل آثاره.

وإن مما تنبغى الاشارة إليه لفتة الأنصار القومية حينما أعلنوا عن مكان اجتماعهم فى صميم أرض منسوبة إلى بعض بطونهم ولم يشاءوا عقد مؤتمرهم فى مسجد الرسول مثلا أو غيره من الأماكن العامة وليس مما يستساغ فى المنطق أن يقال إنهم أرادوا بهذا أن يبعدوا عن اجتماعهم غير المرغوب فيهم، فان حتى هذا القول يحمل فى ثناياه نفس الجواب عليه، وهو أنهم كانوا يريدون إعلان القومية المدينة ويعينون رئيسا على المجتمعين فى السقيفة من أصحاب السقيفة دون المهاجرين من غير أهل المدينة . . . وذلك إلى جانب أنه لا يعقل أن يكون بحثهم فى أخطر مسألة تهم الأمة كلها مما لا يذاع إلا بعد إبرامه، إذ على فرض هذا فانه لن يكون ملزما للأمة . ولا مقبولا لدى الجماعة ولكن مقبول أن يكون اختيار الأنصار لهذا المكان لاعلان أنهم أصحاب البلد وأمراؤه .

١ — وصف عام للمؤتمر

فى ساعة رهيبة من ساعات اليأس القاتل . ساعة نعى الرسول الكريم ظن الأنصار أن الأرض تموج من تحتهم وإن الزمن الذى اختطف أحب الخلق إليهم من بين أظهرهم وقدكان بلسم شفاء لنفوسهم، وراحة رحمة لقلوبهم ،وإكسير حياة لأرواحهم ، لا يمكن فيه الثقة بصديق مهما بلغ من الوفاء . فى هذه الساعة الرهيبة نفر الأنصار إلى طبيعة عربية قديمة فدعوا الى اجتماع السقيفة ، وثابوا الى هذا المكان وجسد الرسول مسجى فى حجرة عائشة والمهاجرون وبنو هاشم مشغولون بتجهيزه وأداء مراسم الجنازة ولقد أوشك الانصار أن يختاروا سعد بن عبادة أميرا على المؤمنين أو على الاقل على الانصار من المسلمين، لولا أن المنافسة التى كانت بين الاوس والخزرج دفعت بعضهم [١] لان يتسللوا الى المهاجرين لاخطارهم بما يصنع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة

---

(١) هذا البعض هما عويم بن ساعدة الانصار وعاصم بن عدى الانصارى (الطبرى ج٣ ص ٢٠٨) .

فكان أن قابل بعض الانصار أبا بكر وعمر وأخبرهما خبر الانصار فى السقيفة . فأسرع الرجلان الى حيث الانصار والتقى بهما فى الطريق أبو عبيدة بن الجراح ، وفاجأ الثلاثة الانصار فى السقيفة فوجدوهم قد أصغوا لخطاب سعد ابن عبادة الذى كان مريضا جالسا يبلغ عنه ابنه ما يقول ، وكان من قوله : يامعشر الانصار لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الاسلام ليست لقبيلة من العرب . ان محمدا عليه السلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الانداد والاوثان فما آمن به من قومه الا رجال قليل وكان ما يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به حتى اذا أراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الايمان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لامر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا حتى أثخن الله

عز وجل لرسوله بكم الارض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين. استبدوا بهذا الامر دون الناس فانه لكم دون الناس، فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعدوا ما رأيت نوليك هذا الامر فانك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى [١].

على أن أبا بكر وصاحبيه ماكادوا يستقرون فى السقيفة حتى قام خطيب آخر من الانصار وأخذ ينادى بقوله: أما بعد فنحن أنصار الله تعالى وكتيبة الاسلام وأنتم معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم فاذا هم أرادوا أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الامر [٢].

ولم يكد هذا الخطيب ينتهى من القاء كلمته حتى ثار عمر وأراد أن يخطب فى الانصار ليضع الامور فى نصابها ولكن أبا بكر رجا عمر أن يتريث وأن يدعه هو يتولى الحديث مع الانصار فوافق عمر وقام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

---

(١) الطبرى جزء ٣ ص ٢٠٨ (٢) تيسير الوصول ج ٢ ص ٤٤.

ان الله بعث محمدا رسولا الى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم شافعة ولهم نافعة وانما هي من حجر منحوت وخشب منجور ثم قرأ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقالوا انما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والايمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم اياهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم واجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الارض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الامر من بعده ولا ينازعهم ذلك الا ظالم .

وانتم يامعشر الانصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الاسلام رضيكم الله أنصار الدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ؛ فليس

بعد المهاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم فنحن الامراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور (١)

فقام الحباب بن المنذر فقال : لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر لا : ولكنا الامراء وأنتم الوزراء لن يعرف هذا الامر الا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب دارا وأعربهم أحسابا (٢) فقام الحباب بن المنذر فقال . يامعشر الانصار املكوا عليكم أمركم فان الناس فى فيئكم وفى ظلكم ولن يجترئ مجترىء على خلافكم ولن يصدر الناس الا عن رأيكم . . . . أبى هؤلاء الا ماسمعتم فمنا أمير ومنهم أمير . فقال عمر : هيهات لا يجتمع أثنان في قرن (٣)

والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم .

---

(١) الطبرى ح٣ ص ٢٠٨ (٢) ابن الربيع فى التيسير ح٢ ص ١٢

(٣) القرن بفتح القاف والراء الحبل الذى يقرن به البعير ويقصد أميران على دولة

ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ذا ينازعنا سلطان محمد ﷺ وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته الا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط فى هلكة فقام الحباب بن المنذر فقال يامعشر الانصار إملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر فان أبوا عليكم ماسألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الامور فأنتم والله أحق بهذا الامر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين .

أنا جذيلها [١] المحكك وعذيقها [٢] المرجب والله لئن شئتم ليعيدنها جذعة [٣] فقال عمر إذا يقتلك الله تعالى قال الحباب . بل إياك يقتل فقال أبو عبيدة يامعشر الانصار . إنكم أول من نصروا آزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يامعشر

---

(١) الجذيل تصغير جذل وهو العود الذى يحك به الجرب

(٢) العذيق النخلة الكثيرة الثمر ومعنى العبارة أنه عظيم أنه عظيم الرأى مجرب

الانصار . انا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به من الدنيا عرضا . فان الله ولى المنة علينا بذلك . ألا أن محمدا ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الامر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة . فأيهما شئتم فبايعوا . فقال عمر لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فانك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذهما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة . والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الامر عليك . أبسط يدك نبايعك . فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما اليه بشير بن سعد . فبايعه . فناداه الحباب ابن المنذر . يابشير بن سعد ما أحوجك إلى ماصنعت أنفست على ابن عمك الامارة . فقال : لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

وبيعة بشير الخزرجي كسر على سعد بن عبادة ما كان ينتظر وتهافتت الاوس على بيعة أبي بكر ، وازدحم الناس على البيعة حتى لقد وطئوا سعد بن عبادة بأقدامهم واقبلت أسلم بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر وأقبل الناس من كل جانب يبايعون لابى بكر ولم يخالف عليه أحد سوى سعد ابن عبادة الذي كادت تؤخذ البيعة له وكان مريضا فنقل من السقيفة الى بيته بعد ملاحاة مع عمر حتى كادت تؤجج فتنة لولا تدخل أبي بكر

بهذا استطاع أبو بكر وصاحباه عمر وابو عبيدة ، أن يسكنا هذه الفتنة التى كادت تهدد الدولة الاسلامية الناشئة فى أحرج ظروفها .

واذا كان لنا أن نتساءل عن الحافز لهؤلاء المؤمنين الذين صحبوا الرسول في أدق الظروف ، وكانوا عصب الدعوة وحماتها ، فان من أول ذلك وأقربه الى العقل ما نسجله فيما يأتى .

(١) تأصل الروح القبلية فى نفوس العرب .

وقد كان المسلمون فى حياة الرسول ينتمون الى قبائل شتى ، وبطون مختلفة وأجناس متباينة ، وكان الى جانب هذا اخلاط من اليهود والمنافقين يساكنون هؤلاء المؤمنين في المدينة وغيرها . فلما نعي الناعى رسول الله وقع ذلك من نفوس المسلمين موقع الرعد والصواعق . فهزها هزا عنيفا وكاد يأتى على بنيان الايمان من القواعد .

أجل . جزع الانصار اذ قيل رسول الله قد مات وقلقت نفوسهم وغذى اليهود والمنافقون هذا القلق باثارة الاحقاد العربية القبلية وأذكوا روح المنافسة القديمة بين قبائل العرب فتهدج صوت الايمان فى قلوب كثير من نقباء الانصار فثار هؤلاء الى سقيفتهم ، لا بوصفهم انصار الاسلام ، بل باعتبارهم أصحاب البلد ، وأبناء الاوس والخزرج وأنه من الخير لهم أن يبرموا أمرهم فى غيبة من المهاجرين الذين وفدوا عليهم صحبة الرسول الكريم [١]

(٢) تصريحات الرسول للانصار .

---

(١) انظر فى هذا خطاب الحباب تجد فيه هذا المعنى واضحا

ثم أن الانصار يتمسكون بأحاديث أثرت عن رسول الله تفيد أن الرسول رجل من الانصار ، وأنهم آله وعشيرته فظن الانصار أن رياسة المسلمين بعد رسول الله يجب أن تكون فيهم وحدهم ، ولهذا رأوا أن يولوا أمير المؤمنين منهم وأن يجتمعوا على زعيمهم سعد بن عبادة ، وأن المهاجرين اذا علموا بذلك لاينازعون في هذا

الانصار اذن متأولون مجتهدون ، فهم مأجورون وان أخطأوا اذ غايتهم وضع الامور في نصابها، وان أخطأ والمحجة فى نظر الاغلبية .

أما تلك التصريحات التى استند اليها الانصار فمن أهمها .

أولا ـ ما ورد في بيعة العقبة الكبرى. اذ قال الرسول لوفد المدينة مع مصعب بن عمير الدم الدم والهدم الهدم يعنى أنا منكم وأنتم منى أيها الانصار . وهذا عندما قال الانصار للرسول . فهل عسيت ان نحن بايعناك وقاطعنا

اليهود ، ثم أظهرك الله تعالى ان ترجع الى قومك وتدعنا :
فعند ذلك صرح لهم ذلك التصريح الانف

ثانيا ـ ماحدث فى غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ
(٦٢٤ م) فقد أخذ الرسول يستشير الناس في لقاء المشركين
فشاور المهاجرين فوافقو على قتالهم ، وجندوا مصادمتهم .
ولكن الرسول لم يقدم على الحرب ولم يهتم برأى هؤلاء
المهاجرين .

ثم أعاد الاستشارة ووجهها الى الانصار فوافقوا
فعند ذلك استطاع الرسول أن ينشب القتال وهو مطمئن
إذ كان العدد والشوكة فى الانصار ، وهم الاكثرية الساحقة
فى جيش المسلمين ، وبهم وحدهم كان النصر الذي كان سببا
فى القاء هيبة المسلمين في نفوس المشركين .

ثالثا ـ وفى فتح مكة ، كان الانصار هم الذين أرغموا
قريشا على الطاعة بما لهم من العدد والسلاح ، فهم عضد
الرسول وساعده عند الشدائد ، وهم فاتحوا مكة فلهم السيادة
بحكم الفتح على قريش .

ويوم حنين ، وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة ، فاعطى الرسول ناسا لما يرى فيهم من ضعف ونفاق ، وترك الانصار ، فظنوا أن ذلك لهوانهم على الرسول ، فتحدثوا وأكثروا ، فعلم بهم رسول الله فجاءهم ، وحدثهم وطمأنهم مؤكدا لهم أن تصريحاته السابقة باقية ، وانهم آله وعشيرته ، وأنه أصبح رجلا من أهل المدينة لا من أهل مكة . ثم قال . أفلا ترضون يامعشر الانصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم . فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة ، لكنت أمرءا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار

نقول : بامثال هذه التصريحات ، والخدمات تشبث الانصار بأحقيتهم في أمارة المؤمنين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ الروح القومية :

كذلك رأى الانصار انهم أصحاب العاصمة الاسلامية وهم ملاك الاراضى ، وأصحاب الضرع والزرع فى المدينة

وانهم وقد أقاموا دولة الاسلام فى بلادهم وبسواعدهم ـ لاينبغى فى شرعة السياسة أن يتخلوا عن السيادة فى وطنهم لقوم أجانب عنهم ، وان كانوا أعزة عليهم ، ومتفقين وأياهم فى دينهم وملتهم . لان هذا معناه تسامح فى أبسط شئون الوطن مما يجعل الاجنبى يتحكم فى رب الدار ، وهذا ليس من منطق المصلحة ولا أسلوب الحكم والادارة بل أن الذى ترتضيه الجماعة أن يكون أميرها من بينها ، ومن أقربهم الى أفرادها .

كان الانصار إذن مدفوعين بعامل القومية ؛ ولذلك كانت ثورة أحد سادتهم تدور حول هذا المعنى . فهذا الحباب يقول . فان أبى المهاجرون أن يؤمروكم عليهم ، فأجلوهم عن بلادكم .

وهذا لم يصدر من الحباب إلا لاقتناعه بأنه صاحب البلاد ، والمواطن الاصيل ـ فى رأيه ـ ومن ثم فانه إما أن يوافق المهاجرون على اسناد الرياسة إلى الانصار ، أو فليخرجوا من المدينة التى هى بلاد الانصار . بيدانه مع وضوح هذا

السبب من الانصار ، نري من الحق أن نشير إلى أنهم قد غفلوا عن مبادىء أخرى وضعها الرسول ، ودعمها بالقول والعمل . وتلك هى أن رسول الله قد آخى بين المهاجرين والانصار وجعلهم شركاء فى المدينة ، وبهذا أصبح المهاجرون مواطنين كالانصار سواء بسواء .

كذلك نرى الرسول يصرح فى مناسبات متعددة بان المسلمين كتلة واحدة ، وجسم واحد ، وأن ذمتهم واحدة يقوم بها أدناهم وأن الاسلام يجب ماقبله من حزازات ومنافسات وقوميات وأن كل من يعتنق الاسلام من أى جنس ولون يكون له ماللمسلمين وعليه ماعليهم ، وأن كل أمور المسلمين يجب أن تعرض عليهم ويبدي كل فرد فيها رأيه ، وان أكرم المسلمين أتقاهم سواء كان مكيا أو مدنيا ، وان المفاضلة فى جميع الشئون الدينية والسياسية وغيرهما لاتكون إلا بالتقوى وهى التمسك بروح الاسلام وحسن التدبير ، وقوة الصبر مع الله . والجهاد فى سبيل دينه ورسوله .

ومن كل ذلك نستطيع أن نقول . إن الانصار كانوا دعاة

قومية محلية وأما المهاجرون فـكانوا يريدونها قومية اسلامية
أو جامعة إسلامية ولعل الفرق بين الرأيين يتضح لنا إذا
افترضنا نجاح الانصار فى تأمير أحد المدنيين على مسلمى
المدينة كما أراد الحباب، فتكون دولة اسلامية فى المدينة تنفذ
أوامرها على يثرب فقط.

أما المهاجرون فانهم حالوا دون هذا. اذ كانت نظريتهم
أن ينتخب المسلمون جميعاً فى جميع انحاء البلاد الاسلامية
أميرا عليهم يوجههم ويشرف على دينهم ودنياهم وهذ ماقد كان
وهو الموافق لمحكم التعاليم الاسلامية

بقى أن نشير إلى النتائج التى أسفر عنها مؤتمر السقيفة
وما بقى منها فى المسلمين فى العصور التالية.

الشورى

وأول هذه النتائج، الشورى التى بدت واضحة فى
مبايعة أبى بكر، إذ عرضت المسألة على بساط البحث
وأدلى كل برأيه، ثم تغلب رأى المهاجرين فبويع ابو بكر،
وقد ظلت الشورى كمبدأ فى بيعة الخليفة وولى عهده طوال
دولة الخلفاء الراشدين والدول التى تلتهم، وان تطورت بتطور

العصور . فنراها فى عصر الملك الوراثى زمن الامويين
والعباسيين بل اصبحت الشورى مسألة رسمية شكلية
يتظاهر الملوك بالعمل بها لا اكثر . والحقيقة سافرة عن
الاستبداد ونبذ الشورى .

الانتخاب

كذلك سنت السقيفة (مبدأ الانتخاب) لا صلح
الموجودين من كبار رجال الدولة ، وقد عمل بهذا المبدأ أيام
الأربعة الراشدين ، وترك بعدهم مباشرة فلم تعمل به أسرة
من الأسر التى حكمت المسلمين بوجه عام .

البيعة

ومن المبادىء التى سنتها السقيفة (مبدأ البيعة) ، وهى
أن يصافح الناس أميرهم علامة على الرضا بأمارته ، وقد ظل
هذا المبدأ ، وتطور بتطور الزمن ، بيدانه ظل على كل حال

تحديد برنامج الحاكم

ومما سنته السقيفة ، أن يتقدم الأمير بخطاب بين
يدى حكمه و بعد مبايعته يبين فيه منهجة وخطته فى الحكم
ليرتاح إليه المحكومون ويعرفوا مسلكه فى الحكم . وقد
ظل هذا المبدأ معمولا به حتى الآن وهذه عادة قديمة ورثها

الاسلام عن الأمم السابقة ولم ينسخها بل أقرها ، واستحسنها المسلمون فساروا عليها .

نشوء الفرق

على أن من أهم النتائج التى أسفر عنها هذا المؤتمر نشوء بذور الفرق الاسلامية التى تشكلت فيما بعد .

فقد كان فريق الأنصار وهم الذين لا يريدون تأمير قريش ووافقهم بعد مدة طائفة الخوارج ، مع فارق بسيط وهو أن هؤلا يدينون بالمبدأ الجمهوري المحض ، والأنصار يريدون صرف الخلافة عن قريش لتكون فى أهل المدينة دون سواهم .

كذلك كان هنـاك فريق يرون حصر الخلافة فى آل البيت ، وهؤلاء هم الذين نظمت على أساسهم فرق الشيعة فى العصور التالية وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الجمهور الأعظم الذى بايع لأبى بكر وهذا الجمهور هو الذى جاء على أساسهم فريق أو حزب أهل السنة والجماعة .

وعلى هذا يكون مؤتمر السقيفة أساسا لنشوء مذاهب أهل السنة والشيعة ، والأنصار ثم الخوارج ، وأخيرا

المعتزلة . أن صح إن فريقا من المسلمين اعتزل المهاجرين والأنصار ورفض أن يبايع لأحد من هؤلاء أو هؤلا وهذا لا يؤيده مستند يوثق به .

بيعة أبى بكر

وبالشكل الذى أبناه تمت بيعة أبى بكر فى السقيفة ، ولكن هل يمكن أن يعتمد المسلمون خلافة أبى بكر بهذا الانتخاب العابر ، ولم يحضر جلتهم وجل كبرائهم هذه البيعة ، بل أنهم لم يدعوا إليها ولم يعلموا بها . الواقع أن هذا المعنى لم يغب عن أبى بكر ، ولذلك نراه بعد أن يتم تجهيز الرسول ومواراته ، يطلب من المسلمين أن يجتمعوا لأمر هام ، فيحضر كبار المسلمين ، وكل ذى رأى فيهم ، ثم يقف عمر بينهم ويخطبهم قائلا .

أيها الناس ، إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي وما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ،

وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ، وثاني اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوا ، فعند ذلك بايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة(١) .

وعلى ذلك تعتبر بيعـة أبى بكر ، ناشئة عن شورى ورضا من المسلمين ويعتبر انتخابه حرا لاجبر فيه ولا استبداد لأنه بعد ما سكن الفتنة فى السقيفة وكانت حينئذ بيعة ، لم يكتف أبو بكر بها ، بل جمع الناس وعرض عليهم ما كان فى هذه السقيفة ، فايد المسلمون بيعته فيها وجددوا له التأييد بالبيعة له ، ولم يخالف عليه أحد إلا من ذكرنا من مثل سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، وكان ذلك فى السقيفة أما حين بيعة المسجد العامة فى اليوم التالى ، فان الطبرى يروى أنهما بايعا ، مختارين ، وإن كانت هناك روايات أخرى أيضا تقول بامتناعهما مدى الحياة(٢) .

---

(١) انظر الطبرى حـ ٣ ص ٢٠٣ (٢) نفس المصدر السابق .

أما ما يقال من امتناع بنى هاشم وعلى رأسهم العباس وعلى عن مبايعة أبى بكر فاننا سنتحدث عنه حديثا أوفى بعد قليل .

بعد أن انتهى عمر من خطبته السابقة بين يدى أبى بكر وقام المسلمون فبايعوا له ، قام أبو بكر على المنبر فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال .

أما بعد . أيها الناس فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فانه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ،ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله . وبهذا البيان البديع ، والخطاب المحكم افتتح أبو بكر خلافته وحدد منهجه ، وأجمل

برنامجه ، ولم ينس أن يؤكد لهم وجوب النصيحة للخليفة وطاعته متى أطاع الله ورسوله . كما أكد لهم فريضة الجهاد، وأسهب في الحث عليها :

تقدير أبى بكر

كان أبو بكر رضى الله عنه قبل إسلامه يعيش فى مكة تاجرا موسرا بزازا يبيع الثيـاب ، وكان رأس ماله حوالى الأربعين ألف درهم ، وكان عالما بانساب العرب وأخبارها ، عف النفس واللسان ، حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وكان كريما معوانا للضعيف ، بارا بأقاربه صريحا في الحق ، صدوقا فى القول .

وأبو بكر من أولئك العشرة الذين انتهت إليهم المكارم من قريش . فكانت إليه « إلا شناق » وهى الديات والمغارم فكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه ، وأمضوا مااحتمل وان احتملهاغيره خذلوه ويؤكدالمؤرخون أن الصداقة انعقدت بينه وبين الرسول قبل الاسلام [1] .

---

(١) أنظر مذكرات حسونه بك لاصول الدين .

ولما أسلم أبو بكر سماه الرسول ، عبد الله ، وكان أعداؤه يكنونه أبا فصيل وهو أول من أسلم من الرجال . وإذا شك أحد فى هذا ، فلا مجال للشك فى أنه من أسبق أعوان الرسول ، وأخلص المؤمنين بدعوته ذلك الايمان الذى بلغ درجة اليقين المحض . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم . ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر . وفى حديث آخر . « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر الا أن يكون نبى » وبلغ من ايمانه ، انه لما نزل قوله تعالى « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » قال يا رسول الله ، لو أمرتنى أن أقتل نفسى لفعلت . فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله « صدقت » .

لم يتسرب الشك الى نفسه حتى فى حديث الاسراء ، حين كان الناس بين مصدق ومكذب ، وحين ارتد إناس ممن كانوا آمنوا . أما أبو بكر فقال : أنى لا صدق بما هو

أبعد من هذا . أصدقه فى خبر السماء في غدوة أو روحة ، فسمى أبو بكر الصديق من يومئذ .

كان أبو بكر لين الجانب ، كريم الشمائل ، فاجتذبت هذه الصفات محبة الناس له ، وأجلالهم لقدره . فأسلم على يديه رجال عظماء منهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام . وعبد الرحمن ابن عوف .

ولم تكن تضحية أبى بكر قاصرة على اخلاصه للمبادىء الاسلامية ، بل لقد أنفق فى سبيل هذه المبادىء حوالى خمسة وثلاثين ألف درهم من خالص ثروته . حتى اذا كانت الهجرة لم يبق له سوى خمسة آلاف درهم . أنفق كل هذا فى طاعة الله . وقد اعتق سبعة كلهم يعذب فى الله ، فكان يعتق العجائز والنساء حتى قال له أبوه . أى بنى أراك تعتق أناسا ضعافا فلو أنك تعتق رجالا أقوياء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال . أى أبت أنا أريد ما عند الله .

وفى أبى بكر نزل قوله تعالى « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » الآية من سورة الأعلى

وعلى الجملة ، فان أبا بكر كان نسيج وحده فى الدين والخلق ، والعلم والكرم وكان آية للرجولة فى أنقى صفحاتها وأنبل نعوتها ، وكان يجمع الى دماثة الخلق شجاعة القلب ، وقوة الارادة .

حدَّث على رضى الله عنه فقال . أخبرونى: من أشجع الناس، فقالوا أنت فقال. أما أنى ما بارزت أحداً الا انتصفت منه . ولكن أخبرونى باشجع الناس ، قالوا لا نعلم فمن : قال أبو بكر، أنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشا، فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوى اليه أحد من المشركين فوالله مادنا منا أحد الا أبا بكر شاهرا بالسيف على رسول الله لا يهوي اليه أحد الا هوى اليه ، فهو أشجع الناس . وقد أبنا فيما سبق موقفه من وفاة الرسول ، وكيف ثبت فى أدق مرحلة عرفتها الدولة الاسلاميه ، ثم كيف استطاع أن يسكن فتنة السقيفة مما لا داعى لاعادته .

خلاف على و بنى هاشم و ما قيل فيه

على الرغم من ان ثقات المؤرخين يذكرون ان ابا بكر كان متفقا عليه من جميع المسلمين ، ولم يتخلف احد عن بيعته ؛ حتى سعد بن عبادة نفسه يروى انه بايع في بيعة العامة كما اسلفنا .

بل على الرغم اننا لم نسمع فى التاريخ ان عليا ثار على ابى بكر - على الاقل - كثورة الانصار فى السقيفة . ولم يقف فى الجمع الحاشد حين بيعة العامة . يندد بأبى بكر ومن بذل له البيعة .

على الرغم من هذا كله نرى ان ابن الاثير وغيره يتحدثون عن خلاف علىٍّ على ابى بكر ، وامتناعه وبنى هاشم عن مبايعته ، ويسندون هذا الحديث الى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها (١)

---

(١) أنظر تيسير الوصول حـ ٣ ص ٤٦ ، وقدجاء فى هذه=

ومما ينبغى ذكره هنا ، ان صاحب الـكامل، والخضرى وغيرهما قد رجحا رواية هذا الخلاف . وتبعهما من لف لفهما فى ذلك .

ولـكننا بعد الموازنة بين الحقائق التاريخية . نرى ان عليا بايع منذ بيعة العامة . وان المسلمين جميعا عدا سعد بن عبادة قد بذلوا البيعة مختارين لابى بكر . ولم يتخلف على ولا بنو هاشم عن مبايعة الخليفة الاول . وذلك لعدة أمور.

= الرواية أنه أتت فاطمة والعباس (رض) أبا بكر (رض) يلتمسان ميراثهما من رسول الله (ص م) فقال أبو بكر . سمعت رسول الله يقول . لا نورث . ما تركناه صدقة . . . فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت بعد ستة أشهر . فدفنها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر « وفى هذه الرواية أيضا » فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبي بكر ، ثم تذكر هذه الرواية أن عليا تقابل مع أبى بكر وتعاتبا ثم بايع لأبى بكر ، وتبعه بنو هاشم ، فرضى الناس عن على « حين راجع الأمر بالمعروف » الخ اه تسير الوصول حـ ٢ ص ٤٦ — ٤٧

أولا - ماذكره الطبرى فى تاريخه (١) من ان عليا بايع من أول الامـر وقد رواه بسـنده عن سـعيد بن زيد (٢) وحبيب بن ابى ثابت (٣) وكذلك مراجعته لابى سفيان ابن حرب (٤)

---

(١) تاريخ الأمم والملوك حـ ٣ ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) نص الأثر الوارد « قال عمر بن حريث لسعيد بن زيد ، أشهدت وفاة رسول الله (ص م) . قال : نعم قال . فمتى بويع أبو بكر قال يوم مات رسول الله (ص م) . كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة . قال : فهل خالف عليه أحـد . قال . لا إلا مرتدا أو من قد كاد أن يرتد . لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار . قال فهل قعد أحـد من المهاجرين . قال : لا : تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم » .

(٣) نص حديثه « كان على فى بيته اذ أتى فقيل له قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه . ثم جلس إليـه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه » .

(١) ذلك أن أبا سفيان قابل عليا بعد مبايعته لأبى بكر فى البيعة العامة وقال له : مالى أرى هذا الأمر فى أقل حى من قريش والله لئن شئت لنملأنها خيلا ورجلا . فقال على . يا أبا سفيان طال ما عاديت الاسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا . إنا وجدنا ابا بكر لها أهلا . وطبيعى انه متى وجد على أبا بكر أهلا للخلافة ، فانه لن ينازعه ، وذلك الذى قد كان فيما نرى.

ثانيا — ان عليا كان الى جانب ابى بكر في حروب الردة وكان على من جنوده المخلصين حتى لقد وكل اليه قيادة فرقة الانقاب مع الزبير وابن مسعود [١] وهى الفرقة التى كانت مهمتها حراسة الطرق المفتوحة الموصلة الى العاصمة ضد غارات المرتدين

ثالثا — ان عليا بايع فيما بعد لعمر بن الخطاب ووقف الى جانب عمر ، وصاهره عمر فتزوج ام كلثوم ابنة على من فاطمه وعمر ولى عهد ابى بكر وخليفة المسلمين من بعده فلا يعقل ان يمتنع عن بيعة ابى بكر ، ويبايع لعمر الذى هو ادنى منزلة وقدرا من ابى بكر

رابعا — ان عليا كان ملازما للخلفاء الثلاثة السابقين عليه ، فبايع عثمان كما بايع لصاحبيه من قبل ، بل انه كان اطوع لعثمان من بنانه فى الوقت الذى باعده البعيد والقريب ، وثارت عليه امصار الدولة ولامته عائشة ام المؤمنين

ولكن عليا لم يخذل عثمان ولم يعن عليه ، بل صدقه

---

١ الامم الملوك للطبرى ج ٣ ص ٢٢٣

أذ كذبه الناس ، ودافع عنه اذ تركه معاوية نفسه

فهل لمثل هـذا الرجل يقال انه خالف ، فلما جفاه الناس وافق وهل فى التاريخ فرية أشنع من هذه على رجل كله خير واعراض عن الباطل واستمساك بروح الاسلام

ثم ان خلق على وسجاياه التى طفحت بها كتب التاريخ تجعلنا نعتقد ان عليا ليس من اولئك المتملقين الذين بالدين يأكلون وبالمداراة يعيشون ، ويبنون مجدهم على نفاق الغوغاء ومخادعة الدهماء

لقد حدثنا التاريخ ان عيب على الوحيد ، يتركز في سلوكه سبيل الحق في معاملة الجميع ، فلا يعطى احدا فوق ما يستحق ، ولو فى ذلك ضياع سلطانه ، حتى لقد كانت هذه السياسة من اهم الاسباب فى اخفاقه ضد معاوية الذى كان ينشد الملك ويهون كل شيء فى سبيله ، وقد كان يعطى ولا يمنع ، ولا يبالى ايؤخذ بحق ام بباطل ، مادام فى هـذا النجاح لسياسته

هذا الذى اجمع عليه المؤرخون يرينا صورة علىّ على

نقائها فهو لا يداهن فى دين الله، ولا يقبل غير الحق ولو كلفه ذلك فصل هامته

فهل يمكن لمثل هذا ان يجامل الناس فيطيعهم اذ يظفر بالسلطان، ويعصيهم اذ ينصرف عنه الجاه والنفوذ اللهم لا

خامسا - واخيرا فان رواية الخلاف التى أشرنا اليها، على ما بها من اضطراب وتفكك. هى متناقضة. فى نفسها اذ بينما يتحدث الراوى عن الميراث. اذا به يخلط بها مسألة الخلافة مما يدلنا على ان واضعها من الشيعة الغلاة الذين يقولون بان الخلافة بالنص لا بالشورى

ومن هنا كانت حملتنا عليها وعلى ما تضمنته من امور لو صحت لغيرت تاريخ على من اساسه. وذلك قلب للحق ولما اجمع عليه المؤرخون وفي مقدمتهم الشيعة الذين. فيما نظن - هم المؤلفون لرواية الخلاف هذه

وقبل أن نختتم الحديث عن السقيفة وما تلاها ، نرى أن نعرض لمسألة أخرى تشبه هذه المسألة تماما ، وتلك هي ما نسب إلى أبي بكر من أنه عند ما ذهب إلى السقيفة وشهد حال الأنصار ، روى لهم حديثا عن الرسول فعند ذلك بايعوا له ، وسكنوا ، وكفوا عن الخلاف .

أما هذا الحديث المزعوم فهو (الأئمة من قريش) .

وقد ذكر ذلك الخضرى فى محاضراته ، وسبقه إليه ابن خلدون فى تاريخه ومقدمته .

والذى يهمنا فى هذا المقام أن رأينا مخالف لرأى الخضرى واسلافه ودليلنا على ذلك ما نوجزه فيما يلى :

١ — عدم وجود هذا الحديث ضمن خطب أبى بكر سواء فى السقيفة أو المسجد ، فى البيعتين العامة والخاصة ، ولا فى خطب عمر أو غيره ، كما أبنا آنفا .

٢ — أن اجتماع السقيفة ، وتداول الأنصار فى الأمر ومقارعة المهاجرين لهم بالحجج إلا قناعية يدل بوضوح على أنه لم تكن هناك نصوص تقيد المسلمين بقبيلة معينة أو بيت

معين ، بل ترك الأمر للمسلمين يشكلونه حسب المصلحة العامة لدولتهم .

٣ — أن هذه الرواية لم نجد لها أصلا فى الصحيح من أحاديث الرسول بهذا النص وكل الروايات . على علاتها — التى وردت فى هـذا الشأن بأساليب مختلفة ، لم تكن فيها رواية بهذا النص (١) .

٤ — كلمة (إمام) الواردة في هذا الحديث لم تعرف بلغة ذلك العهد ، كعلم على خليفة الرسول (أمير المؤمنين) بل هى اصطلاح على إمام الصـلاة أو إمام الدين فحسب ، وبين يدينا ألقاب الرئيس الأعلى للدولة الاسلامية ونراه يلقب أولا « الخليفة » ثم « خليفة الخليفة) ثم (أمير المؤمنين) ويظل ذلك علما على كل رئيس يتولى رياسة الدولة الاسلامية حتى كان العصر الثانى للدولة العباسية ، فنشأ هذا اللفظ (إمام) وأطلق على خليفة الاسلام ، وقد كان ذلك عند ما أصبحت للشيعة دول تنافس الدولة العباسـية ، وتنازعها السلطان ،

---

(١) أنظر تيسير الوصول (باب الخلافة) .

فاتخذ هؤلاء كلمة الأئمة ، أحياء لذكرى أئمتهم الذين نكل بهم الأمويون والعباسيون .

وأما إطلاق كلمة «الامام» على ابراهيم بن محمد العباسى « فى أواخر الدولة الاموية ، فلا ينافى ما ذكرنا . اذ كان الامام المذكور مجرد رئيس للجمعية السرية التى تسعي للوصول الى الحكم على انقاض الأموية ولذلك نرى أن أول خليفة يتولى الحكم يلقب بأمير المؤمنين ، ويظل يخاطب به سائر خلفاء العباسية .

٥ — على أن روح الاسلام - وهى شورية محضة - تنبو عن هذا الحديث ، لأن النص تستحيل معه الشورى والانتخاب ، ويترتب على ذلك - ان صح - الزام المسلمين بالوقوف عند حد المنصوص طبقا للتعاليم الاسلامية ويكون جدل الأنصار مخالفة صارخة لمبادىء الدين ، كما أن خروج الامارة من قريش يعتبر خروجا على الاسلام الذى ينص على أن الامارة يتحتم أن تكون فيها . وكل ذلك مخالف للحق والتاريخ . اذ الانصار من خيار المسلمين ، والامارة

خرجت من قريش فى عصور كثيرة . وروح الاسلام
لا تتفق مع هذا الحديث والكتاب الذى هو ميزان الاسلام
لا يشير على المسلمين الا بعمل الاصلح فى دينهم ودنياهم ،
بل انه ليصرح ان التقوى . هى الاساس فى وزن الرجال
«ان اكرمكم عندالله اتقاكم» . وكذلك الحديث الصحيح ينادى
بانه . لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى : اسمعوا
وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد ، ولهذا واشباهه نرى ان هذا
الحديث . سواء كان على سبيل الخبر او الانشاء لا ينسجم
مع روح الاسلام ، ولا مبادىء النبى فى السياسة والادارة
فقد امر زيدا واسامة ابنه وهما من الموالى على كبار رجالات
قريش . وفعل ذلك أبو بكر

وانما كل ما في المسأله ان الشيعة الذين دبجوا مسألة
امتناع على هم كذلك وضعوا هذا الحديث لينصروا به مذهبهم
فى التنصيص على الخليفه وذلك ليتوصلوا الى النص على على
(رض) وهو مايقصدونه ومادعا اليه السبئية من قبل . وان

كانت السبئية تقول بالوصية الى على بالذات . وترى رفض امارة غيره من قريش وبالجملة فهذا الحديث فى رأينا غير صحيح . لما اسلفنا

أما عن مسألة التآمر التى يرمى بها المستشرقون ابا بكر وعمر وابا عبيدة وعائشة فقد اوجزنا فيما سبق ردا عليها (١)

« حروب الردة » في جزيرة العرب

لم يكد ينتشر خبر وفاة الرسول خارج المدينة حتى ثارت نفوس الاعراب الجامحة واشتد هلع المؤمنين المخلصين كما ارتدت بعض القبائل التى لم تتأثر بتعاليم الاسلام ، وظهر كثير من المتنبئين الادعياء الذين كانوا قد ظهروا فى حياة النبى فى الجهات البعيدة ، وأضحى الدين الجديد فى خلال مدة وجيزة محصورا فى المدينة وحدها . وهكذا أخذت يثرب على عاتقها من جديد أن تحارب القبائل العربية المرتدة إلى الوثنية .

---

(١) انظر الفصل الاول من هذا الكتاب ،

أما أسباب الردة فيمكن أرجاعها إلى أمرين :

أحدهما تلك المبادىء الأخلاقية الصارمة التى فرضها الاسلام فرضا : والثانى ، نفور العرب من أداء الزكاة ، واعتبارها إتاوة تؤخذ منهم قسرا [١] .

على أن مما ساعد على تفاقم أمر هؤلاء الخارجين على حكم المدينة ، أن وجد بينهم قواد ساخطون على حكم المسلمين بها ، أدعى بعضهم النبوة وحاول أن يقلد رسول الله فى جمع العرب من حوله ، وتكوين دولة تحت زعامته وكانت قبائل بنى حنيفة وبنى تميم ، ومذحج باليمن من أظهر القبائل التى أدعي زعماؤها النبوة .

ففى بنى حنيفة ظهر مسيلمة ، وادعى أنه نبي ، وكان اول ظهوره في حياة الرسول ، وكانت بنو حنيفة تنزل اليمامة قرب البحرين ، فكانت بذلك بعيدة عن عاصمة الدولة الاسلامية ، وقد حاول مسيلمة هذا أن يصالح النبى على

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى (بالانجليزية) .

أن يكون له جزء من جزيرة العرب وللرسول الباقى ، فرفض النبى طلبه [١] .

كذلك قام قرب نجد – طليحة رئيس قبيلة بنى أسد وادعى النبوة وجمع له أتباعا في حياة الرسول . ولكن لم تنجح هذه الحركات إذ أخمدها الرسول فى حياته ، وظل مسيلمة وطليحة مغلوبين على أمرهما طوال حكم الرسول للدولة الاسلامية ، مع تظاهرهما بالاسلام والطاعة .

أما فى اليمن ، فان عيهلة الأسود من قبيلة مذحج ، عن له أن يخرق على قومه ، فتبعه خلق كثير ممن يحبون الفوضى والأباحية ، ويبغضون النظام والسلوك الفاضل ، وبذلك تقوي الاسود وخرج مدعيا النبوة ، فأغار على أطراف الدولة الاسلامية باليمن ، واستطاع أن يخرج عمال النبي منها حتى أن المرشد العام لاقاليم اليمن وحضرموت لم يستطع أن يأمن على نفسه إلا بجوار قبيلة قوية .

---

(١) انظر الطبرى حـ ٣ ص ١٦٢ .

والمرشد العام هنا هو معاذ بن جبل الذى أقامه الرسول معلماً متنقلا بين جميع مخاليف اليمن وأمصارها . وقد صاهر قبيلة السكون ليأمن شر الاسود حين تفاقم شأنه .

على أن خطر هذا المتنبىء الجديد ، لم يقتصر على اليمن وحضرموت ، بل تعداهما إلى الحجاز حيث وصل نفوذه إلى الطائف بجوار مكة ، وخشى الرسول أن يصل نفوذه إلى المدينة نفسها .

لذلك اتخذ الرسول الحيلة وسيلة فى القضاء على هذا الدعى الذى أباح الابضاع والاموال ، وأشاع الفساد فى الارض .

كان عامل الرسول على اليمن منذ أسلمت ، باذام (١) أحد الانباء ، فلما مات هذا فرق الرسول عمله بين رجال عدة ، ولكنه احتفظ لشهر بن باذام بامارة صنعاء قصبة اليمن .

فلما كانت حركة الاسود ، قتل شهر بن باذام أثناء قتاله مع الاسود . وقد ملك الاسود صنعاء وتزوج امرأة

(١) كذلك فى الطبرى ، وفى ابن الاثير باذان .

شهر وهى من الابناء (١) ، وقد دبرت هذه المرأة الفارسية الموتورة من الاسود لقتله زوجها شهر بن باذان ، مؤامرة مع بعض الابناء ، وتمكن فيروز من قتل الاسود وتخليص صنعاء من شره وكان ذلك قبيل وفاة الرسول بأيام .

غير أن قتل الاسود لم يقض على حركته ، فقد اصطنع هذا الرجل كثيرا من عرب اليمن ، وجند جيشا كثيفا لغزو البلاد ، حتى ليقال أن فرقة الفرسان بلغت سبعمائة فارس مجهزة بأحدث الاسلحة فى عهده . وسبعمائة فارس عدد كبير في ذلك الوقت وفى شبه الجزيرة .

ولذلك ظل الخطر على الدولة الاسلامية ماثلا فى اتباع الاسود وجنده المدربين حتى تولى الخلافة أبو بكر فى سنة ١١ هـ .

* * *

---

(١) هم الجماعة التى أقامت باليمن من الفرس منذ ضم اليمن الى ايران قبل الاسلام وقد أطلق العرب على هؤلاء الايرانيين لقب الابناء .

وفى [1] المحرم من سنة ١١ هـ ضرب الرسول على الناس بعثا إلى الشام، وأمر على الجيش مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره الرسول أن يدخل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز النـاس ، وانضم إلى البعث المهاجرون الاولون جميعاً ، واستعدوا للخروج .

فى هذه الاثناء بدأ مرض الرسول صلى الله عليه وسلم وشغل المسلمون بحركات مسيلمة والاسود ، واستـأخر خروج البعث ، حتى لقـد أكثر المنافقون فى عيب إمارة أسامة المولى الشاب، على كبار المهاجرين ، ونقباء الانصار وبلغت الرسول قالتهم ، فغضب ورد عليهم بقوله «لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى امارة أبيه من قبله، وإن كان أبوه لخليقا للامارة ، وإنه لخليق لها . فانفذوا بعث أسامة ، لعن الله

---

(١) هـذه أرجح الروايات فى بدء الاستعداد ، ويقال أن أن ذلك كان فى أواخر صفر .

الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد[١] .

ونظرا لتصميم الرسول على خروج بعث اسامة ، فقد فصل من المدينة وعسكر بالجرف خارجها . وظل اسامة وجنده يرقبون حركات المتنبئين ، ولا يبتعدون عن المدينة لاشتداد المرض على رسول الله

وبينما الحال على ذلك ، توفى الرسول صلى الله عليه وسلم واشتدت الفاجعة على المسلمين فتفرق بعث أسامة . وكانت مسألة السقيفة وبويع أبو بكر ، فخفف من ألم الكارثة . وثاب المسلمون الى رشدهم ، ودفن الرسول في اليوم التالى لوفاته وفى نفس ذلك اليوم اعلن أبو بكر عودة بعث اسامة الى مكانه بالجرف كما أمر رسول الله ، واستأذن اسامة لبعض معاونيه الذين لا يستطيع الاستغناء عن رأيهم ومؤازرتهم مثل عمر بن الخطاب وبعد ان استعرض الخليفة الجيش

---

(١) الأمم والملوك ح ٣ .

وزوده بتلك النصيحة (١) الخالدة سار ماشيا فى ركاب اسامة الذى عزم عليه ان يركب أو ينزل هو فيمشيا معا ، ورفض ابو بكر طلب اسامة قائلا ، والله لا ركبت ولا نزلت . وما على ان أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله . وبعد أن فصل جيش أسامة ، تواترت الأنباء من أنحاء الجزيرة بتمرد القبائل وارتدادها عن الاسلام ، فدعا أبو بكر كبار المسلمين وعرض عليهم ماوصله من أخبار الأطراف ، وتمرد العرب ، فأشار غالبيتهم بتركهم حتى تهدأ فورتهم وحدها ، فقال بعضهم إنه

---

١) نص النصيحه برواية الطبرى « يا أيها الناس قفوا اوصيكم بعشر فاحفظوها عنى لا تخونوا ولا تغلو ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحو شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغو انفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون اقواما قد فحصوا اوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله . اقناكم الله بالطعن والطاعون (ح ٣ ص ١٣٢)

مادام هؤلاء قد رفضوا دفع الزكاة ، وأقروا بالمبادىء الأخرى فلاداعى لقتالهم ، ولا سيما وزهرة شباب الجيش الاسلامى مع أسامة فى مشارف الشام ، وهم مهددون بالفناء ان لم يقبلوا عرض المرتدين .

بيد ان ابا بكر رفض هذه الآراء وأخذ يناقشهم فى تعاليم الرسول وانه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله — الحديث .. وان من حق الاسلام الزكاة وان الذى يقول لا اله إلا الله ويفرق بين الصلاة والزكاة هو والذى لا يقولها سواء إذ آمن ببعض وكفر ببعض والاسلام كل لا يتجزأ ، فاما ان تعمل به جملة واما ان ترفضه جملة ولا ثالث لهما

لا فُضَّ فوك يا خليفة رسول الله !

وبمثل هذا المنطق اقنع ابو بكر كبار المسلمين وضمهم الى جانب رأيه واستفاد الجميع بشرح ابى بكر ، وآمنوا بأن الرأى الحازم هو الذى رآه وهو قتال المتمردين والمرتدين حتى يراجعوا الاسلام والطاعة ، او يفتح الله بينهم وبين المتمردين بالحق

ولكن نظرا لان الجيش اكثره خارج المدينة : فان ابا بكر اتخذ خطه الدفاع مدة تغيب اسامة بالجند ، وقد اغار فى هذه الفترة بعض القبائل على المدينة ولكن الله رد كيدهم الى نحورهم واستطاع ابو بكر بحسن النظام ، ودقة الدفاع واحكامه ان يجلى المغيرين الى ذى القصة ، بل انه التقى بهم فى هذا الموضع وهزمهم هزيمة منكرة وبذلك أبعد الخطر قليلا عن المدينة

غير ان ما حدث كان من امثال عبس وذو بيان القريبتين من المدينة والذين قصدوا السلب والنهب . اما الخطر الحقيق فكان ماثلا فى الجهات النائية مثل اليمامة التى قام بها مسيلمة ابن حبيب الذى جمع حوله اعداد كثيرة من بنى حنيفة ثم بنى تميم الذين قادتهم سجاح وانضمت الى جيوش مسيلمة واصبحت وإياه يدا واحدة ضد المسلمين

كذلك كان هناك قبيلة من بنى اسد وقد سارت وراء طليحة نبيها الدعى . هذا الى جانب اتباع الاسود العنسى باليمن ـ وهؤلاء كثرة هائله وسبق لهما ان اقتطعت من املاك المسلمين مالا يحصى

وعلى الجملة فان ابا بكر بمهارته وعزيمته استطاع ان يصد خطر المرتدين عن المدينة ، وظل مدافعا قويا حوالى الشهرين وبعض الشهر

وفى جمادى الاول من سنة ١١ هـ قفل جيش اسامة الى المدينة . وقد صاحبه النصر فى حملة الشام . فاستقبله المسلمون وعلى رأسهم الخليفة ابو بكر ثم رأى الخليفة ان يأخذ الجند وقائده قسطا من الراحة . فانابه ابو بكر عنه في المدينة . واذن للجيش بفترة استجمام حوالي الاسبوعين . اعلن بعدها الخليفة التعبئة العامة على الذين اعلنوا العصيان على حكم المدينة فاجتمع عدد عظيم من المتطوعة ولذلك رأى ابو بكر ان يضرب المرتدين فى وقت واحد وفى عقر دارهم . فقسم الجيش الى فرق بلغت احد عشر فرقة . وعين كل فرقة قائدا . وعين له الجهة التى يتوجه اليها . وكتب عهدا من نسخة واحدة لجميع القواد (١) كما اصدر منشورا عاما الى جميع النواحى

---

١) مما جاء فى هذا «هذا عهد من ابى بكر خليفة رسول الله لفلان حين بعثه فيمن بعثه ثم بعد ان يعظ القائد يبين له الطريقة التى يتبعها فى قتال المرتدين فيقول « ان يعتذر اليهم فيدعوهم=

التى حدث فيها العصيان (١) وزود القواد بالنصائح الاسلامية فى ادب الحرب والقتال .

ومن اشهر القواد الذين اختارهم ابو بكر فى قتال المرتدين خالد بن الوليد .

ووجهه ابو بكر الى طليحة بن خويلد الاسدى ببزاخة (٢) فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

= بداعية الاسلام فان اجابوه امسك عنهم . وان لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له . ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم » الخ وهى نصيحة ثمينة راجعها فى الطبرى حـ٣ ص ٢٢٧

١) فى هذا المنشور دعا ابو بكر المرتدين الى مراجعة الطاعة والجماعة ووعظهم بالله وذكرهم بآياته وابان لهم فى صراحة وحزم ان الرسل بشر كسائر البشر . وان الله ارسلهم للاصلاح، وانهم يموتون كما يموت الناس جميعا وأن الله الحى القيوم هو وحده الباقى . ثم قال لهم . انى بعثت اليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والانصار التابعين باحسان وأمرت ان لا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه . ومن أبى امرت ان يقاتله على ذلك الطبرى حـ٣ ص ٢٢٦

٢) بزاخة ماء بالقرب من نجد

ومنهم عكرمة بن ابى جهل . وكان أمير الفرقة التى سارت الى مسيلمة باليمامة وأرسل قائد فرقة أخرى فى اثر عكرمة وهو شرحبيل بن حسنة

كذلك كان من قواد ابى بكر المهاجر بن أبى أمية وسار الى الاسود العنسى لمعاونة الابناء باليمن

ومن القواد العظام ايضا حذيفة بن محصن الذى ذهب الى عمان . وعرفجة بن هرثمة الذى أمر باخضاع مهمة اليمن على ان يجتمع مع عرفجة اذا انتهى أحدهما من مهمته قبل الآخر . والعلاء بن الحضرمى الذى توجه الى البحرين . وطريفة بن حاجز وميدانه بنو سليم وهوازن . وعمرو بن العاص وفرقته الى قضاعة . وخالد بن سعيد . وميدان حربه مشارف الشام .

وسار هؤلاء القواد بفرقهم الى الجهات التى عينها الخليفة وحدثت بينهم وبين المرتدين مواقع كان النصر فى نهايتها للجيوش الاسلامية وقد ظلت الحروب بين المرتدين

حوالى عام كامل . صبر فيه المسلمون وأبلوا أعظم البلاء ، ونالوا النصر فى النهاية

على ان نتائج هذه الحروب لم تقتصر على اخضاع الاعراب المتمردين وتوحيد شبه الجزيرة تحت حكم المدينة بل انها كانت لها آثار عظيمة فى توسيع رقعة الدولة الاسلامية ونشر حضارة الاسلام خارج جزيرة العرب

ذلك ان بعض الفيالق التى قاتلت فى الشمال والشمال الشرقى وقع احتكاك بينها وبين الفرس على حدود العراق ، وبينها وبين الروم على الاراضى الشامية التى كانت تدين بالولاء للروم الشرقيين

نتائج حروب الردة

واذا كان هذا التصادم بين المسلمين وبين دولتى الفرس والروم قد ادى فى النهاية الى انهزام الدولتين الكبيرتين بل الى انهيار احداهما نهائيا . فان مما لاريب فيه ان نصر الدولة الاسلامية عليها قد أدى من ناحية اخرى الى انتشار المبادىء المحمدية والحضارة الاسلامية خارج شبه الجزيرة . مما جعل الفرس الوثنيين والروم المسيحيين يفكرون جديا

فى الدين الجديد ، ويحسبون حسابا لاتباعه بعد ان سخروا بالامس القريب من رسل النبى حيث مزق كسري كتاب رسول الله لا لسبب سوى انه دعاه الى الله وشهادة الحق ، استكبارا فى الارض ، وعلوا فسادا

ولنا عودة الى الحديث عن الفرس والروم عند الكلام على الفتوحات الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين

* * *

الفتوح الاسلامية فى عصر الراشدين

سرعة انتصار المسلمين ـ حال الفرس والروم ـ حروب أبى بكر ـ حروب عمر ـ حروب عثمان ـ نتائج هذه الحروب .

انتصار المسلمين اسبابه

ابنا فيما سبق كيف قضى ابو بكر على المرتدين ، واشرنا الى ان جيوشه ما كادت تنتهى من حربهم حتى وجدت نفسها مرغمة على الاشتباك بدولتى الفرس والروم نتيجة وصول جنود الاسلام الى حدود الدولتين

ونريد ان نوضح فى هذا الفصل ما حدث من حروب

بين المسلمين وجيرانهم فى الشمالين الشرقى والغربى لشبه الجزيرة العربية

بيد اننا قبل الدخول فى وصف الحروب ، نرى ان نوجز كلمة عن اهم الاسباب التى جعلت النصر من نصيب المسلمين ، ثم عن حال الفرس والروم لنستطيع ان نقدر نصر الاسلام على وجهه التاريخى

(١) واولى تلك الاسباب يجب البحث عنه فى هزيمة القبائل العربية فى حركة الردة اذ ان هذه القبائل لم يكن من المنتظر لها ان تواصل خضوعها للخلافة ، وقد هزمت امام جيوشها .لذلك رأى الخليفة ان يستغل ذلك الميل الفطرى فى العرب الى المقاتلة فى ناحية الفتح والتوسع ، ونشر الاسلام خارج شبه الجزيرة

ولقد برهن العرب فى هذه الحروب على شجاعتهم التى يضرب بها المثل فدوخوا جيوش الدولتين المتفوقتين عليهم فى العدد والسلاح

(٢) على انه كان الى جانب ذلك ما لحق المرتدين من

الندم والحسرة على ما فرط منهم حين ارتدادهم بعد اسلامهم فارادوا أن يكفروا عن خطأهم فى حق الله ورسوله بالاستشهاد فى القتال فى سبيل الله . ولهذا كان الموت احب اليهم من الحياة ومن احب الموت وهبت له الحياة

(٣) وهناك سبب يتعلق بالعرب انفسهم . فقد كان هؤلاء محبوسين فى عقر جزيرتهم قانعين بصحرائها ومفاوزها وارضها الجرداء الا ما شذ فى اليمن وأمثالها .

وكان شغل القبائل العربية مقصورا على الحروب القبلية لاتفه الاسباب ، ومما زادهم ضيقا على ضيقهم . وحفز كثيرا منهم لان يئد ولده خشية الفقر والمتربة

فلما جاء الاسلام ، وكرر الوعد لمن يسلم بالغنى والسيادة ، وحّد الجبهة العربية وجمع شملها . ثم وجه أبو بكر هذه القوى الكامنة فى القبائل الى ما يعود عليهم بالغنى الوفير ، والسيادة المطلقة ، ولذلك استماتت العرب فى الحروب الفارسية والرومانية . ولمسوا نتيجة النصر ، فقويت روحهم المعنوية وقهروا عدوهم بسهولة لا تتصور

(٤) على ان دعوة الاسلام التى قامت على توحيد الله واسناد كل الامور اليه وحده ووضوح هذه الدعوة . كان مماقت فى عضد الوثنية التى دان بها الفرس والرومان حتى في العصر المسيحى . وبذلك كانت مبادىء الاسلام سريعة الوصول الى قلوب الامم المجاورة

وهذا الى جانب كفالة الاسلام للعدالة المطلقة لسائر الشعوب التى انتصر عليها . مما جعل رعايا الفرس والروم يتهافتون على الانضواء تحت راية الخلافة الاسلامية .وذلك بطبيعة الحال بفضل اولئك الرجال الافاضل الذين وجهوا تلك الحروب ، ونشر هذه المبادىء ، وكانوا هم اول العاملين بها المستمسكين بنصوصها وروحها

وإذا كانت مبادىء الاسلام، وندم المرتدين على مافرط منهم من اهم الاسباب فى سرعة المسلمين فى فتح البلاد ، وتوسعهم فى ضم الاقاليم ، فان من عوامل انتصارهم السريع ما كانت عليه الدولتان الفارسية والرومانية من تفكك وانحلال نتيجة الحروب الاهلية والخارجية

الروم

فهذه دولة الروم - وهى مجاورة فى الشمال والغرب لدوله الاسلام - اناخ عليها الضعف والهزال منذ أوائل القرن السابع الميلادى ، اذ مضى عهد جستنيان وفتوحه وتنظيماته

على ان خطر الاضمحلال كان ماثلا حتى فى ايام جستنيان فقد توالت النوائل على الدولة حتى خشى عليها . فمن فساد خلقى الى آخر سياسى ، وزادت عليها نكبات طبيعية اذ اجتاح الوباء اقاليم الدولة من الشرق ، فكانت الدولة عندذلك كأنها سائرة الى الدمار لاينجيها منه شىء ، فكان حكم فوكاس حكما ظالما قائما على جيش فاسد ، تسنده عصبة فاسدة من الاشرار

ولذلك ثار هرقل على فوكاس واستطاع بمؤامرة محكمة ان ينزله من عرش الامبراطورية ، وان يوبخه ويعدمه ويمثل به

ولكن فى الوقت الذى البس فيه هرقل تاج الامبراطورية . كانت دعوة الاسلام قداوشكت على البزوغ وبدت بوادر الانقلاب فى افق السياسة الدولية

وحوالى سنة ٦٢٩ م سار هرقل يقصد الحج الى بيت المقدس فى أول الربيع وأراد عند ذلك أن يعيد الصليب الى محله ، وقد كان استلبه الفرس حينما غلبوا الروم منذ سنتى ٦١٤ ، ٦١٥ م . وقد استرده هرقل الآن أى حوالى سنة ٦٤٧ (٦ هـ) وفى هذا التاريخ أرسل الرسول كتبه ورسله لملوك العالم يدعوهم الى اعتناق الاسلام ومبادئه ولم يكن ذلك كل ما أحاط بالدولة الرومانية – فى ذلك الوقت – بل أن غارات المتبربرين من الشمال والشرق، وتفاقم الخلافات المذهبية المسيحية فى طبيعة المسيح، وسوء الادارة الرومانية . كل ذلك ساهم فى انحلال الرولة الرومانية فوق تقسيمها الى شقين ، وانهيار القسم الغربى منها الذى مركزه « روما »

الفرس

أما الفرس فلم تكن دولتهم أسعد حالا من الدولة الرومانية . بل أن عوامل الانحلال قد أخذت تنخر فى كيانها ، وتعجل بزوالها فقد خرج الثائر الغاصب بهرام على كسرى حفيد أنو شروان ، بعد ولايته بأيام قلائل وطرده

من بلاده ، فلقيه الامبراطور موريق مرحبا به حتى ليقال أن كسرى تزوج ابنة الامبراطور الرومانى موريق

على أن المهم فى هذا أن حفيد أنوشروان العظيم ، وعدو الامبراطور الرومانى قد أستنجد الان بدولة معادية لدولته . وبجيوشها استرد عرشه المغتصب فى دولة الفرس ، واتخذ مستشاريه من الروم

ومع ذلك فان العداء التقليدى بين الفرس والروم طفر من جديد وعادت الحرب بين كسرى أنوشروان وبين الروم ، وفى الجزيرة التى كانت ميدان النضال العنيف انتصر الفرس ، وضموا إلى أملاكهم بلاد الشام وفلسطين ومصر وأهدى كسرى الصليب الى زوجته المسيحية وظل الحكم الفارسى يظل تلك الجهات من سنة ٦١٥ إلى سنة ٦٢٧م أي مايقرب من أثنى عشر سنة

كانت عاصمة الفرس حتى أواخر حياة النبي « المدائن » على شطى الدجلة الشرقى والغربى . وقد بنيت هذه المدينة منذ ملك أردشير بن بابك ، ثم غلب ملوك الطوائف

واستبد بالامر دونهم ، فوحد كلمة الفرس وأدخل فى ملكه العراق وما جاوره من بلاد العرب ، وكان يلقب شاهنشاه أى ملك الملوك .

ولقد ظلت المدائن عاصمة الدولة حتى ولاية كسرى أنو شروان المتقدم ذكره .

ثم جاء بعد كسرى هرمز ، ثم كسري ابرويز وهو الذى أرسل اليه الرسول كتابه فمزقه ، ودعا عليه الرسول واستجاب الله دعوة نبيه . إذ قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب ملكه ، ثم مات هذا وتولى العرش ابنه اردشير وهو طفل صغير ، فقام بعض القوادوقتل الامبراطور الطفل وتولى الملك من بعده .

ولكن هذا الامبراطور المغتصب لم يهنأ بالعرش طويلا . اذ اجتمع أمراء البيت المالك وأجمعوا أمرهم على قتله فقتل لاربعين يوما من تملكه ، وبعدها تولى عرش الفرس اباطرة ضعاف بسبب اختلافهم وتفرقهم ، وهكذا حتى كان آخرهم يزدجر بن شهريار الذى زالت فى ايامه الدولة الفارسية

واضيفت إلى الخلافة الاسلامية فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

حروب ابى بكر الخارجية

قبل أن نتحدث عن حروب ابى بكر مع الفرس والروح نوى ان نوجز كلمة عن الرجل حتى نستجلى صورة عن القائد الاعلى لجيوش الاسلام الظافرة

من هو أبى بكر :

ولد أبو بكر لسنتين من عام الفيل ، وأبوه أبو قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى من قريش ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عامر من بنى تيم بن مرة من قريش كذلك فهو قرشى أبا وأما .

شب أبو بكر على الاخلاق الفاضلة ، وكان ذا يسار يشتغل بالتجارة وينفق ماله فى مساعدة الفقراء والمعوزين وكان محترما لدى قريش كلها لكرمه وشجاعته ، وغناه وشرف نفسه ، وحسبه فيهم وكان مصافيا للرسول قبل

النبوة ، فلما شرف الله محمدا بالرسالة سارع الى الايمان به فكان
أول رجل آمن بالله ورسوله ، ولم تكن له كبوة فى إسلامه
وقد سماه الرسول « الصديق » .

تزوج أبو بكر فى الجاهلية قتيلة من بنى عامر من قريش
وتزوج أم رومان من بنى غنم بن مالك بن كنانه ، وقد ولدت
له الاولى أسماء زوجة الزبير وعبد الله ، وانجبت له الثانية
عبد الرحمن ، وعائشة أم المؤمنين وتزوج في الاسلام أسماء
بنت عميس أرملة جعفر بن أبى طالب فولدت له محمدا الذى
تربى فى حجر على بن ابى طالب .

كذلك تزوج فى الاسلام حبيبة بنت خارجة فولدت له
أم كلثوم أما عن أخلاقه . فقد كانت آية فى العظمة والجلال
وكفى من ذلك لقب الصديق الذى عرف به منذ أسلم حتى
لقى الله بيد أن من أبرز صفات الصديق مضاء العزيمة ، وقوة
الارادة وخصوصا فيما يعتقد أنه الحق ، وقد ظهرت هذه
الخصائص فى حروب الردة التى شملت شبه جزيرة العرب
عدا الحجاز ، فقضى عليها أبو بكر بعزمة لا تلين ، ووحد

جزيرة العرب كعهدها منذ أواخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومنشأ الحروب مع الفرس والروم فى خلافة أبى بكر فى الواقع - احتكاك المسلمين بجيرانهم بسبب حركة الردة

مع الفرس

فنى سنة ١١ هـ وبينما العلاء بن الحضرمى قائد لواء البحرين ، يشتغل باخضاع المرتدين في تلك الناحية ، انضم الى الجبشة قائد عظيم من سادة العرب وهو المثنى بن حارثه فساهم فى تعجيل نصر العلاء على أهل البحرين .

ولما تم للمسلمين النصر فى البحرين ،زحف المثنى بفرقته البالغة ثمانية آلاف جندى ، صوب الشمال حتى وصل الى نهر الفرات ، فارسل اليه أبو بكر كتاب تشجيع بان يواصل زحفه والتقى المثنى بالقبائل القاطنة مصبات الفرات وكانت تفوق جيشه فى العدد والعدة . لذلك اتبع خطة الدفاع عن مراكزه وأخطر المدينة بامره طالبا المدد من الخليفة . فارسل أبو بكر الى خالد بن الوليد الذى كان قريبا منه ، أن يسير الى المثنى لنجدته ، فسار خالد وضم جيشه الى جيش المثنى ، وقسم

الجيش الى فرق . تولى هو احداها والمثنى على فرقة أخرى وعياض بن غنم على الفرقة الثالثة .

وقد رابط خالد على مصب الفرات ، وأرسل عياض ابن غنم الى خلدة لفتحها وبعث المثنى الى بلدة الابلة على مصب الفرات لفتحها وضمها الى الدولة الاسلامية . وقد حاصر عياض دومة الجندل مدة .

وفى المحرم من سنة ١٢ هـ (٦٣٣ م) وصل الى خالد بن الوليد خطاب تعيينه قائدا عاما على الجبهة الفارسية . فسار الى بلدة الحصير الواقعة على الحدود بين بلاد العرب وأملاك الفرس وكان معه عشرة آلاف جندى ، فضم اليه جند المثنى وقسمها الى ثلاث فرق . جعل على أحداها عدى بن حاتم ، وعلى أخرى المثنى المتقدم . ثم كتب الى هرمز عامل الفرس على كاظمة والفرات كتابا يطلب منه الدخول فى الاسلام ، أو دفع الجزية عن يد وهو صاغر فاتصل هرمز بملك الفرس وأخبره بكتاب خالد ، وأخذ في الوقت نفسه يتجهز للقتال والدفاع عن بلاده ، فاعجله خالد على القتال ، وبدأ بالمبارزة ، فصرع

خالد هرمز قائد الجيش ، وبذلك وقعت الهزيمة على الفرس ، ففروا من وجه المسلمين ، ومن بقى من أهل البلاد خضعوا للمسلمين وقبلوا حمايتهم ودفع الجزية التى فرضها عليهم المسلمون .

أما الحيرة فلم تلبث عقب مناوشة طفيفة ان أذعنت بالتسليم ، وحذا حذوها دهاقين كلدة ، فابقاهم الخليفة على أراضيهم مشترطا عليهم دفع الجزية كما أقر الفلاحين على حالتهم .

غير أن استيلاء المسلمين على الحيرة أدى بحكومة الفرس أن تدرك الخطر المحدق بها ، فحشدت جيشا جرارا وأنفذته لاجلاء المسلمين عن كلدة والجزيرة ، وفى هذه الاثناء أرسل الخليفة خالد بن الوليد على رأس قوة كبيرة الى الشام كما أرسل المثنى الذى لم يلبث ان سحب مراكزه الامامية وعاد مسرعا الى المدينة ليحادث الخليفة في أمر تعزيز قوته ، فوجده على فراش الموت : والى هنا وصل بنا المطاف الى جمادى الاخرة من سنة ١٣ هـ وفى ذلك التاريخ توفى أبو بكر الخليفة

الاول لرسول الله ، واستخلف بعده عمر بن الخطاب الذى
لقب بامير المؤمنين لاول مرة فى الدولة الاسلامية .

وقبل أن تغادر هذا الميدان من الجبهة الفارسية ، نرى
أن نقول كلمة انصاف لمسلك خالد بن الوليد القائد
العام لجيوشها .

وقد كان خالد من الرجال الممتازين بين العرب ، فقد
استطاع ان يخمد حركة الردة فى أكثر من ميدان، واخضع
معظم أقليم العراق ، والجزيرة وما جاورها فى بضعة عشر
شهرا فقط . كما أن سياسته نحو البلاد المفتوحة ، وما أتبعه
من عدل وانصاف مكن للمسلمين فى هذة الجهات وهاهو
ذا كتاب عهده لاهل الحيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن
الوليد ، عديا وعمرا ابنى عدى ، وعمرو بن عبدالمسيح وأياس
ابن قبيصة ، وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة
وأمروهم به وعاهدوهم على مائه وتسعين الف درهم (١٩٠ الف درهم)
تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسيهم

إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة ، وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم . وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة ، وكتب في بشهر ربيع الاخر من سنة ١٢ هـ كذلك لم يمتنع خالد أن يعطي عهدا لبعض القرى حينما طلب أهلها ذلك مثل بانيقيا ، وباروسما ، وكذلك مع كل من طلب ذلك من دهاقين البلاد .

وأن مما يستحق الذكر ان خالدا بعد استولى على الاجزاء السابقة من بلاد الفرس ، وضبطها وولى عليها الامراء والجباة وأبقى بها مسالح لحمايتها أرسل الى ملك الفرس كتابا ، وإلى المرازبة آخر . وقال فى الاول :

من خالد بن الوليد الى ملوك فارس . أما بعد . فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرا لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم في أرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وقال فى كتاب المرازبة : بسم الله الرحمن الرحيم .

من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس أما بعد.فاسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية والا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر .

وعلى الجملة . فان الحرب فى هذه الجبهة لم تكن بالسهولة التى قد تتصور فان الفرس من الامم القديمة ذات الحضارة والقوة ، وكانت تدافع عن تقاليدها بحرارة . بيد أن خالد كان متفوقا بالمهارة والقوة الحربية مما عوضه عن الكثرة والاسلحة ،واستطاع بذلك أن يهزم الفرس منذ الجولة الاولى وأن يكسب الجولات التالية .

وبهذا فتح المسلمون كلدة والحيرة واستولوا على بانقيا وباروسما وأليس ، وأوقعوا بالفرس على نهر الثنى تلك الموقعة التى غنم منها جيش خالد مغانم كثيرة

كذلك أنتصر المسلمون فى معركة الولجة[1] ،وأليس[2] وفرات بادقلى على مصبات الفرات،والانبار وعين التمر ودومة

---

(١) الولجه تلى كسكر من البر (٢) بلدة على نهر الفرات

الجندل وكلها مواضع بالعراق.

كذلك استطاع هذا القائد العبقرى أن يركز فتوح الاسلام فى دلتا الفرات ، وأن يعلى كلمته فى تلك الجهات التى دانت لاتباع زرادشت قرونا من الزمن.

وفى ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٢ هـ اختلس خالد هدأة النضال قليلا وانسل إلى الحجاز حاجا شاكرا أنعم الله على ذلك النصر الذى توج به هامة الاسلام فى أرض كسرى ، وموطن المجوس ، فأدى نسكه وعاد وكأن لم يغادر ميدان القتال ، حتى أن الخليفة نفسه لم يعلم على التحقيق خبر حجه إلا بعد برهة حيث عتب عليه فى ذلك .

وأما ماينسب الى ذلك القائد من قتله لمالك بن نويرة وتزوجه من زوجته فان الخطب لعمرى جد يسير . وجلية المسألة كما حققها ابن الاثير فى تاريخه أن خالدا بعد أن انتهي من طليحة ببزاخة توجه نحو البطاح موطن بنى يربوع ، وسيدهم مالك بن نويرة الذى كان قد تبع المرتدين وشايع سجاحا ووادعها . ثم ندم وراجع الاسلام ، وغشيتهم خيل خالد

وهم على تلك الحال ولم يعلم بهم خالد .لذلك عندما رآه بنو يربوع تفرقوا فى شعاب واديهم وخشوا صولة خالد ، ولان خالدا لم يعلم بتوبتهم ، أمر بان يحبسوا حتى يرى فيهم رأيه ، ثم أن الجو كان بارداً شديد الرطوبة فنادى منادي خالد بان يدفىء المسلمون أسراهم . وكانت عبارة أدفاء الاسرى بلغة كنانة يراد منها القتل ، بخلاف لغة قريش التى تفسر الدفء بمعناه المعروف وهو إشعال النار لازالة البرد ، وذلك ما قصد اليه خالد بيد أن اليربوعيين ومنهم مالك ـ لسوء حظهم ـ كان الحراس عليهم من كنانة فما أن سمعوا نداء خالد حتى أسرعوا بقتل أسراهم فلما بلغت خالداً أنباء الاسرى وفيهم مالك غضب وتألم ثم أراد أن يواسى زوجة مالك فتزوجها وضمها إلي كنفه

بيد أنه حدث بعد أن قتل مالك ومن معه أن كان أبو قتـادة ـ وهو من صحابة الرسول الأولين ـ حاضرا فاحتج على خالد واتهمه بالغدر فغضب منه خالد ، وإنتهره فذهب أبو قتادة مغاضبا حتى أتى المدينة والتقى بالخليفة وعمر ابن الخطاب وقص عليهما قصة خالد مع الأسرى وكيف

قتل هؤلاء بعد أن شهدوا شهادة الحق ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فقال عمر لأبى بكر : إن سيف خالد فيه رهق وأكثر عليه فى ذلك ، فقال أبو بكر هبه يا عمر . تأول فاخطأ فارفع لسانك عن خالد ، فإني لا أشيم سيفاسله الله على الكافرين ، وودى أبو بكر مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهما . فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : أرثاء قتلت أمرءا مسلما ثم نزوت على امرأته والله لا رجمنك باحجارك ، وخالد لا يكلمه . يظن أن رأى أبي بكر مثله ، ودخل على أبى بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه وعنفه فى التزويج للذى كانت عليه العرب من كراهته أيام الحرب . فخرج خالد وعمر جالس فقال : هلم إلى يا ابن أم سلمة ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه[1] .

هذه هى القصة كما تبين من رواية ابن الأثير ، وهى

---

(١) انظر ابن الأثير حـ ٢ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

المعقولة فى نظرنا . أما حملة عمر على خالد ، فلعلها نشأت عن الاذاعات التى وصلت إلى المدينة ، والتى لم يقصد بها أصحابها مجرد الحق ، بل كانت مشوبة بالانفعال وعدم التثبت من الحقيقة . على أن من الحق أن نصرح لكم بأن خالداً لم يكن موفقا حين حبس بنى يربوع وقد راجعوا الاسلام ، وإن اختلفت أقوال ثقاته فى إظهار اليربوعيين لشعائر الدين إذ يكفى أن يشهد مثل أبى قتادة بأذانهم وصلاتهم حتى يخلى سبيلهم ، ثم بعد حبس القوم لاستجلاء حقيقتهم لم يكن ينبغى أن يكون إعلان إكرام الأسرى والمسجونين بعبارات غامضة يتأولها الناس كما يشتهون مما سبب أراقة دماء هؤلاء القوم .

وأخيرا فان مما يزيد السخط على خالد من مثل عمر أن يخرج خالد على تقليد عربى مجمع عليه وهو أن لا يتزوج الجندى أو القائد فى ميدان القتال ، وقد خالف خالد هذه العادة العربية وتزوج فى ميدان الحرب ، وليته تزوج من

غير من قتل أزواجهم خطأ . بل عمد إلى امرأة سيد القتلى خطأ وتزوجها فزاد النار استعارا .

ولذلك ظل عمر يفرك القتاد على عمل خالد طوال عهد أبى بكر ، فلما واتته الفرصة بعد توليته حتى سارع بعزل خالد من قيادة الجند وولاها أبا عبيدة عامر بن الجراح .

ومهما يكن من شىء فان ذلك لا يقدح فى كفاية خالد العسكرية ، ولا فى عبقريته كقائد مجرب ، وإن نال من بعيد من ورع الرجل ، ووقاره كما ظن عمر .

ومما سبق نرى أن أهم الفتوحات التى كسبها المسلمون فى الميدان الفارسى أو الجبهة الشرقية إنما كانت بسبب المنهج الحربى الدقيق الذى وضعه خالد بن الوليد وهو القائد العام لتلك الجبهة ، ثم لبراعة ضباط الفيالق الذين عملوا تحت إمرة خالد مثل المثنى بن حارثة ، وعياض بن غنم وغيرهما .

مع الروم

أما حروب المسلمين مع الروم فى خلافة أبى بكر ، أو الميدان الغربى الذى انتصر فيه الخليفة وضم إلى دولته أجناد الشام وفلسطين ووصلت حدودا لدولة إلى القلزم على

حدود مصر . فان أهم قواده فى هذا الميدان هم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل ابن حسنة ، ثم معاوية بن أبى سفيان ويقود فرقة الأمداد .

وأول اشتباك للمسلمين مع الروم كان على أثر الحملة التأديبية التى قادها أسامة بن زيد إلى بادية الشام ، فأثارت هذه الحملة حفيظة القبائل الضاربة فى هذه النواحى وقام هؤلاء الاعراب يثأرون لاخوانهم الذين تربطهم بهم أوشاج الدم والقرابة .

وكانت البلاد الواقعة غربى الجزيرة وكلدة خاضعة يومئذ للدولة الرومانية الشرقية ، وكان للرومان في تلك البلاد معاقل حصينة تحرسها حاميات قوية كقيصرية على على البحر ، وأريحا ، والقدس وعسقلان وغزة ويافا ، وعكا وصور . كذلك كان يقع فى شمالى فلسطين ، سوريا أوبر الشام التى من أهم مدنها دمشق وحمص وحلب وأنطاكية ، وكانت تحرسها كلها حاميات رومانية مجهزة بأحدث الأسلحة إذ ذاك

وفى ذلك الميدان منى المسلمون بهزيمة فادحة في أول

حملة أرسلها أبو بكر بقيادة خالد بن سعيد الذى لم يكن من المهارة بحيث يرتاح الخليفة إلى خططه وتصرفاته العـامة ولذلك لم يلبث أن عزله ، ولم يعدل عن فتح الشام بل أخذ يتجهز جادا فى لقاء الروم بهذه الجهات . فجمع أبو بكر جيشاً بلغت عدته ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين ألف مقاتل ولى عليهم أربعة قواد ، ووجههم إلى بلاد عينها لهم .

فهذا أبو عبيدة يقود فرقة ، ويتوجـه إلى حمص ، ومقره الجابية . وأسند إلى عمرو بن العاص قيادة فيلق فلسطين وهدفه فتح هذه الناحية .

وأمر يزيد بن أبى سفيان على جيش دمشق ، كما عقد لشرحبيل على جيش الأردن واتبع هذه الجيوش الأربع بعدد من الجنود كاحتياطى للجيش العامل ، وأسند رئاسته إلى معاوية بن سفيان .

زحف عمرو بن العاص على فلسطين السفـلى مهددا غزة وبيت المقدس ، بينما أخذت الجيوش الثلاثة الأخرى

تناوىء بصرى (١) ودمشق وطبرية . بيدان مجموع جيش المسلمين بداقلة لا يمكنه الصمود لجيش الروم الذى بلغت عدته حوالى ٢٤٠٠٠٠ جندى مجهزين بالسلاح والذخيرة ، وقد كان من السهل على هرقل إمبراطور الدولة الرومانية أن يجمع هذا العدد . إذ كان يدين لحكمه عدا أسيا الصغرى الشام وفينيقيا وفلسطين ومصر وأفريقية .

ولذلك لما علم بزحف العرب أسرع إلى حمص وحشد فيها أربع فرق كبرى . أما القواد المسلمون فلم يلبثواهم أيضا أن حشدوا قواتهم فى صعيد واحد فى « جولان » بالقرب من نهر اليرموك الذى ينبع من جبال حوران ، ويصب في نهر الأردن على بضعة أميال من بحيرة طبرية ، ثم يستدير على بعد ثلاثين ميلا من التقائه بنهر الأردن ليكون شبه دائرة تحتضن سهلا فسيحا منبسطا يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير . كذلك بالنهر انحناء يؤدى إلى

تفصيلات تخشعه الجري البحث

---

(١) هى « اسكى شام » الحالية . ولبصرى تاريخ بسبب مرور النبى عليها ومقابلته لبحيري الراهب .

فضاء مسطح يسمى « الواقوصة » .

ولقد رأى الروم فى ذلك الموقع المتقدم معسكرا طبيعيا محصنا فحشدوا جيوشهم فيه دون أن يحسبوا حسابا للمسلمين الذين ماكادوا يشعرون بخطأ عدوهم حتى عبروا النهر وعسكروا بجانب الوادى الضيق الذى يقع على استدارته ، وأخذ الجيشان يتراقبان حوالى الشهرين حتى مل الخليفة الانتظار فأرسل خالد بن الوليد الذى كان فى كلدة بالميدان الشرقى ، فأسرع خالد إلى الشام : ومعه حوالى خمسة آلاف انضمت إلى الجيوس الاسلامية فى هذه النواحى فبلغ جيش المسلمين حوالى ٤٠٠٠٠ أربعين ألف جندى : وفى صباح آخر يوم من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين . فحمل العرب على أعدائهم حملة صادقة وظلوا يوقعون بهم حتى أفنوا البعض وأغرقوا البعض الآخر فى النهر . وبهذا تم النصر للمسلمين وفتحوا جنوبى الشام ، وهذه الموقعة تسمى موقعة « اليرموك » .

وهنا حدثت وفاة أبى بكر . الذى يقال أن خبر الوفاة

وصلت إلى قائد المعسكر قبل إنشاب القتال فكتمه حتى كسب المعركة ، ثم أذاعه ، وكان القائد حتى هذه اللحظة خالد بن الوليد ، وسبب كتمان الوفاة أن الرسول الذى جاء بالخبر كان يحمل معه خطاب عزل من القيادة العامة لخالد ، وإسناد إمارة الجيش إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح وكان من المصلحة فى رأى خالد أن يظل هو ينفذ الخطة الحربية التى وضعها لهذه المعركة ، ثم يسلم الأمر إلى القائد الجديد ولذلك نرى أنه بمجرد أن تنتهى المعركة يسرع خالد إلى أبي عبيدة ويسلمه جواب القيادة ، ويندمج هو فى الجيش كفرد عادى .

ويتولى أبي عبيدة قيادة الميدان الغربى نكون قد ودعنا عهد أبى بكر وأصبحنا فى خلافة عمر الذى ازدهرت الفتوحات في عهده كما سنرى بعده .

« تذييل »

حول المؤامرة الفارسية

إرتقى عثمان الخلافة بذلك الشكل الطريف الذي أشار به عمر حينما ألحوا عليه فى تعيين خليفة على النـاس . أن كان لا يرى أن يستخلف : فان رسول الله لم يستخلف ، وما كان عمر بالذى يعدل فى الناس برسول الله أحداً .

لذلك رأيناه عند ما طعن « رضى الله عنـه » بالمسجد الجامع بالمدينة يأمر بعض[1] خاصته من المسلمين أن ينظر من قتله حتى إذا عرف أن الذى[2] تولى ذلك من « علوج » فارس يحمد الله أن لم يجعل منيته على يد واحد من المسلمين يحاجه يوم القيامة ، ثم يطلب منه أن يستخلف على الناس فيجيبهم بأنه « إن لا يستخلف فان رسول الله لم يستخلف وهو خير الناس ، وإن يستخلف فقـد عهد إليه من قبل من هو خير منه ـ فى رأيه ـ وهو أبو بكر رضى الله عنه .

---

(١) عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما .

(٢) غلام المغيرة بن شعبة المجوسى .

ثم كثر عليه الطلب فى تعيين خليفة من بعده ، وإنه لو كان الانسان راعيا لقطيع من الابل أو من الغنم ، ماحل له أن يدعها بدون راع [١] وكأنما عمر كان يتنازعه عاملان مختلفان فانه ليرى فى رسول الله خير أسوة ، ومع ذلك لم يعين خليفة على الناس ، وبين يديه أبو بكر حب رسول الله ، وأفضل الناس من بعده ، وقد سلف أن عهد إليه ولكن بعد أن استشار الناس ، واطمأن إلى رضاهم لعمر الى أنها حيرة لا مخرج منها إلا بحسن توفيق من الله : رسول الله لم يستخلف . هذا حق .

ولكن . . ألا يكون ذلك لأنه رسول الله ، ولا ينطق عن الهوى ، فلو أنه عين شخصا أو جماعة لكانت لهؤلاء دولة ، ولترك لذلك الأفضل من الناس ، ولقالوا إن هذا عينه رسول الله ، والذى يخالفه يعصى الله ورسوله .

ثم شكل الخلافة ، أهو وحى من الله . يجب على الناس

---

(١) تيسير الوصول لابن الربيع - بتصرف حـ ٢ص ٤٩ .

أن لا يعدوا ما يرسمه الرسول . لو كان . . . أم هو من شئون الدنيا ، وخصائص الأيام ـ فلكل مقام مقال ، ولكل زمان دولة ورجال ـ فقد تكون طريقة أبى بكر وعمر خيرا للناس فى الوقت الذى كان فيه أبو بكر وعمر ، وقد يبتدع الناس طرائق من الاستخلاف ربما كان فيه خير للناس ، وبقيا للمسلمين ، وقد يبدعون فيها عن أبى بكر وعمر حسبما يرونه من المصلحة العامة للاسلام والمسلمين .

ثم أبو بكر ـ وهو من نعرف في تقواه وورعه ، وعقيدته ودينه أيخالف رسول الله فى أمر يكون العصيان فى فعله ، والخير فى تركه . هذا ما لن يكون من رجل كأبى بكر يعرفه عمر ويطمئن إلى أنه لن يتعمد مخالفة رسول الله بحال ما ، بل يعرفه أكثر من ذلك منذ قبض رسول الله ، وذهل عمر وثبت أبو بكر . فثبت الناس ورجعوا إلى الحق ، وإلى قول أبى بكر .

ثم منذ حركة الارتداد العربية إثر موت رسول الله وقد كان الناس جميعاً فى جانب وأبو بكر فى جانب ، وفى

وفى النهاية رجع الناس إلى رأى أبي بكر فكان هو عين اليقين ، ودعامة الحق الذى مكن للمسلمين فيما بعد فى الأرض .

ما نظن ذلك كله إلا وقد فكر فيه عمر ، وقلبه من جميع وجوهه ، وشتى مناحيه ، ثم برز ذلك أخيرا فى عهده إلى أولئك الستة الذين قال رسول الله أنهم من أهل الجنة ، والذين قبض رسول الله وهو عنهم راض [1] فانهم حتى مقتل عمر لم يبدلوا تبديلا .

وأخيرا انتخب عثمان من هؤلاء الستة ، وبعد أن أخذ عليه أن يعمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة الشيخين من قبله [2] . أما تفصيل الطريقة التى اختير بها عثمان فاننا نجمله فى ما يلى :

بعد أن رأى عمرو سمع من حال الناس وحديثهم أنهم يريدون أن يوصى بالخلافة لبعض المسلمين ، وأنه إن لم

---

(١) تيسير الوصول لابن الربيع الزبيدى ﺣ ٢ ص ٥٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير ﺟ ٣ ص ٢٧ .

يفعل فقد تكون فتنة ، وإن عدم عهد الرسول لأحد من الناس ، لأنه صاحب الشريعة ، وعمله سنة واجبة الاتباع وأيضا لعل الله سبحانه لم يوح إليه أن يستخلف بل : الحق أنه لم يوح إليه . وإلا لاستخلف اطاعة لأمر الله تعالى وعلى ذلك فقد عهد أبو بكر إلى عمر خشية فتنة الناس ، ولهذا أيضا آثار عمر بيعة واحد من هؤلاء الستة : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، ووضع لهم نظاما للبيعة حتى لا يختلفوا ، وتنشق عصا المسلمين ، وهم لا يزالون في ربعان دولتهم ومبتدأ أمرهم . قال عمر :

ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض فسمى علياً وعثمان ، والزبير وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعدا رضى الله عنهم وقال يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من هذا الأمر شىء - كهيئة التعزية له - فان أصابت الأمارة سعدا فذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فانى لم أعزله من عجز ولا

خيانة . . فلما فرغ من دفن عمر . اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم . فقال الزبير قد جعلت أمرى الى على ، وقال طلحة قد جعلت أمرى الى عثمان ، وقال سعد قد جعلت أمرى الى عبد الرحمن بن عوف . فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله اليه ، والله عليه والاسلام . لينظرن أفضلهم فى نفسه . فأسكت الشيخان . فقال عبد الرحمن أفتجعلونه الى والله على والاسلام أن لا آلو عن أفضلكم . قالا نعم . فأخذ بيد أحدهما . فقال : لك من قرابة رسول (صلى الله عليه وسلم) والقدم فى الاسلام . ما قد علمت . فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن . ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك . فلما أخذ الميثاق قال : أرفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه [١] ، قال الذهبى [٢] « اشتور أهل الحل

---

(١) تيسير الوصول حـ ٢ ص ٥٢ . المطبعة السلفية بمصر

(٢) دول الاسلام للذهبى جـ ١ ض ٩ مطبعة دائرة المعارف النظامية مدينه حيدر آباد الدكن

والعقد بعد عمر ثلاثة أيام ، واتفقوا على مبايعة عثمان بن عفان الأموى - رضى الله عنه وهو من بنى عم النبي (صلعم) « ويقال له ذو النورين . لأنه زوجه النبي (ص م) بابنتيه . رقيـة ، وأم كلثوم - رضى الله عنهما . فسار بسيرة عمه ستة أعوام » .[1]

قال ابن الأثير[2] « فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة ، وقيل فى بيت المـال ، وقيل فى حجرة عائشة باذنها ، وطلحة غائب ، وأمروا أباطلحة أن يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب . فحصبهما سعد وأقامهما . وقال تريدان أن تقولا نحن حضرنا وكنا فى أهل الشورى . فتنافس القوم فى الأمر ، وكثر فيهم الكلام فقال أبو طلحة . أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تتنافسوها . والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم

---

(١) نفس المصادر السابق

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى جـ ٣ ص ٣٦، ٣٧

على الايام الثلاثة التى أمر. ثم أجلس فى بيتى فانظر ماتصنعون

وفي الحق أن بيعة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - كانت غريبة فى شكلها وهيئتها كما أن كثيرا من الناس كانوا يرون أحقية غيره بها من أمثال على - رضى الله عنه - وقد الصقوا من أجل ذلك كثيرا من التهم للنيل من بيعته. فقد قيل أن عبد الرحمن بن عوف حابى عثمان، لصهره وقرابته ولتكون له من بعده وقد رفع المقداد عقيرته قبل أن يفرغ الناس من البيعة بالاحتجاج على تصرف عبد الرحمن بصرف الامارة عن على وآل محمد (صلم) الى بنى أمية وعبد شمس ذلك والبيعة لم تتم بعد، والامارة لم تكد يسلم بها على عثمان. ولعل الناس لحظوا فى عثمان فرط حيائه، وبروزلينه مما لا يتناسب والبيئة العربية اذ ذاك.

بل لعله فوق ذلك. كانت فكرة التشيع لآل البيت وأنهم ظلموا غير مرة. قد تركزت فى نفوس كثير من القوم، وصادفت هوى من نفوسهم فأرادوا أن يعطوا

الأمر أهله ، والقدس باريها ـ وأنه ليتبين لنا ذلك من حديث المقداد وغيره أثناء بيعة عثمان رضى الله عنه .

وإذن فلم يكن انتخاب عثمان باجماع من القوم ، وانما كان هوى لاغلب الناس ، مكنت له ظروف خارجية، وأيده فعل عبد الرحمن بن عوف فى خلع نفسه من الامارة ، وان قام بها بتفويض من اخوانه حتى يختار لها الأصلح من بينهم بعد استيثاقه منهم ، ومن أنه سوف لا يفضل ذا رحم لرحمه ولا صهرا لصهره ، وإنه سيفعل الموافق لمقتضى الحق والعدل والتقوي والاسلام.

ولكن هل فعل ابن عوف ما أخذ نفسه بأن يفعله ذلك ما سنعالجه فيما يأتى وعلى ضوء ما سلف أن قررناه .

بعد أن انضم الزبير الى على وسعد الى عبد الرحمن وطلحة (١) الى عثمان رأى عبد الرحمن ـ رضى الله عنه ـ أن

---

(١) كذا فى تيسير الوصول ، ولكن ابن الاثير الجزرى فى الكامل يذكر ان طلحة كان غائبا ولم يحضر الا بعد المبايعة

يحسم مادة الخلاف . فعرض عليهم اقتراحا وهو . من يخلع منهم نفسه من الامارة . على أن تكون له مدة الأيام التى حددها عمر لهم ، حتى يختار خليفة من بينهم، لا يألوهم جهدا فى تحرى العدل والحق ، ونبذ الجهل والعصبيه ، ثم رأيناه يتقابل مع المسلمين ، ويناقشهم فى عثمان وعلى ، ويتعرف رأيهم فيمن يصلح منها للامارة ، وهكذا مضى ابن عوف جادا فيما أخذ به نفسه من تعرف إرادة الأمة ، ومن توليه سلطانها ، وتمنحه تفضيلها من ذينك الرجلين ذوى الاسبقية والقدم فى الهجرة والاسلام .

هذا . ولم تمض الايام الثلاثة إلا ونرى عبدالرحمن يجمع الناس ثم يأخذ بيد على ، ويقول له . عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده قال على . أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمى وطاقتى - ودعا عثمان فقال له مثل ماقال لعلى . فقال نعم نعمل فرفع

= لعثمان ، وعليه فلم يذكر القصة التى فيها انضمام بعض أهل الشورى الى بعض .

« عبد الرحمن » رأسه الى سقف المسجد ويده فى يد عثمان . فقال اللهم أسمع واشهد . اللهم انى قد جعلت مافى رقبتي من ذلك فى رقبة عثمان . فبايعه . فقال على . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ؛ والله ما وليت عثمان إلا ليرد الامر اليك ، والله كل يوم هو فى شأن ؛ فقال عبد الرحمن يا على لاتجعل على نفسك حجة وسبيلا ؛ فخرج على وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله [١].

ذلك ما كان بين عبد الرحمن بن عوف وبين المرشحين للخلافة من اخوانه وزملائه أهل الشورى ، ومنه يبدو أن عليا - رضى الله عنه - كان غير مطمئن الى عبد الرحمن بن عوف . أن كان يرى نفسه أولى الناس بهذا الامر ، ولكنه وافق على رغم منه ، لانه كما قال للعباس عمه رضى الله عنه . أنه يكره الخلاف [١] - وأما جمهور المسلمين من غير أهل

---

(١) ابن الاثير ج٣

(٢) ابن الاثير ج٣ وتيسير الوصول ح٢ والطبرى فى تاريخ الامم والملوك

الشورى . فالظاهر أن كثيراً منهم كان قلقا من نتيجة هذا الانتخاب وبدا ذاك جليا فى حديث المقداد إبان البيعة لعثمان فقد قال المقدار لعبد الرحمن . أما والله لقد تركته « يقصد عليا » وانه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ، فقال « عبد الرحمن » يامقداد . والله لقد اجتهدت للمسلمين . قال إن كنت اردت الله . فأثابك الله ثواب المحسنين فقال المقداد . مارأيت مثل ما أتى الى أهل هذا البيت بعد نبيهم إنى لأعجب من قريش إنهم تركوا رجلا ما أقول ولا أعلم ان رجلا أقضى بالعدل ولا أعلم منه . أما والله لو أجد أعوانا عليه . فقال عبد الرحمن . يامقداد اتق الله فانى خائف عليك الفتنة (١)

ذلك ـ وان هذه المحاورة على قصرها بين المقداد بن الاسود ، وبين عبد الرحمن بن عوف لتدل دلالة واضحة على ما كان يجيش بنفوس القوم من أفكار وآراء . ظهرت فيما

---

(١) ابن الاثير فى الكامل جـ ٣

بعد ، واتسعت فى خلافة عثمان رضى الله عنه. عندما وجدت مرتعا خصيبا من لين عثمان ، وحيائه الجم الذى لمسه فيه الرسول نفسه حتى قال « الا أستحي ممن تستحي منه الملائكة » (٢).

ثم أمر آخر نتبينه من محاورة العباس لعلى ، ومفاجأة أبى طلحة لهما وهما يتحادثان - وخلاصة الحديث . أن العباس بن عبد المطلب لقى عليا رضى الله عنه بعد أن خرج أهل الشورى لاول اجتماع لهم . فقال على . عدلت عنا ، فقال وما علمك ، فقال قرن بى عثمان ، وقال . كونوا مع الاكثر فان رضى رجلان رجلا ، ورجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن فسعد لايخالف ابن عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان . لايختلفون فيوليها أحدهما الاخر ، فلو كان الاخران معى لم ينفعاني ، فقال له العباس لم أرفعك فى شىء إلا رجعت الى مستأخرا لما أكره . أشرت عليك عند

«٢» ابن الديبع الزبيدى - تيسير الوصول حـ ٢

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت فأشرت عليك بعد وفاته ان تعاجل الامر فأبيت وأشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت . احفظ عنى واحده . كل ماعرض عليك القوم.فقل لا إلا أن يولوك . واحذر هؤلاء الرهط . فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الامر حتى يقوم لنا به غيرنا ، وأيم الله لاينا له إلا بشر لاينفع معه خير فقال على . اما لئن بقى عثمان لاذكرنه ما أتى ، ولئن مات ليتداولونها بينهم ، ولئن فعلوا لتجدنى حيث يكرهون . ثم تمثل .

حلفت برب الراقصات عشية

غدون خفافا فابتدرن المحصبا

ليحتلبا رهط ابن يعمر فارسا

نجيعا بنو السداخ وردا مصلبا

والتفت على فرأى أبا طلحة ، فكره مكانه . فقال أبو طلحة لن تراع أبا الحسن .

ونستطيع ان نستنتج من هذه المحاورة بين العباس

وعلى عدة أمور كان لها أثر فيما بعد في مقتل عثمان رضى الله عنه ، بل وفيما نجم عن ذلك من نتائج وخيمة ، سعرت نار الحروب الاهلية شهورا واعـوا ما بين الذين كانوا بالامس الدابر كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى . فمن ذلك ان بذرة التشيع لال البيت كانت قد اختمرت فى أنفس كثير من عظماء الصحابة أمثال المقداد بن الاسود الذى جعله عمر بمنزلة الرقيب على هؤلاء المرشحين لعرش الخلافة ، والذى لم يكد يرى المبايعة لعثمان حتى يحتج على تصرف ابن عوف . وانه تخطى عليا بغير حق

وكذلك أبو طلحة الذى وكل اليه عمر ان يستعمل القوة فى أرغام المرشحين على انتخاب واحد منهم فى المـدة التى عينت لهم ، وانهم اذ اختلفوا ولم ينتخبوا واحدا من بينهم كان أبو طلحة فى حل من أهدار دماء المخالف منهم -- هذا الرجل الذى كان بهذه المنزلة رأيناه بعطف على على وآل البيت فعند ما كان العباس يتحدث وعليا أطلع عليهما أبو طلحة وذكرة مكانه على .فطمأنه أبو طلحة.وصارحه الحب والتفضيل

من هذه العبارة « لن تراع أبا الحسن [١] » مع أن عليا كان يتحدث والعباس فى منتهى الصراحة منتقدا السياسة للناس فى تفضيلهم غيرهم عليهم مع انهم أحق الناس بهذا الامر . ومعلنا أنه سوف يغامر بالاغضاء عن هفوات الناس هذة المرة ايضا . ولكنه سوف يخالفهم فى المستقبل اذا أصروا على هذه والسياسة التى وضعت الامور فى غير نصابها ومن هذه الامور أيضا . ان عليا رضى الله عنه كان يشعر بأنه قد ظلم . وخصوصا فى بيعة الشورى . فان عمر نفسه قد صرح بأنه كان يود أن يعهد الى الرجل الذى هو احرى ان يحملهم على الطريق . وهو على بن أبي طالب لولا أنه أنه غشى عليه فرأي حول على برا وفاجرا . فعدل عن البيعة له خاصة وجعلها شوري بين النفر الذين يعتقد أنهم رؤوس القوم وخيرهم والذين هم فى نظره لايبدلون الخبيث بالطيب ولو قل الطيب وكثر الخبيث . فوق أن رسول الله قال انهم من أهل الجنة .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦

واذا كان بعض الناس يميل الى ان عليا رضى الله عنه ، لم يتلعثم فى البيعة لواحد من الثلاثة ، فان ذلك لم يكن الا لما صرح به على نفسه من أنه فقط - يكره الخلاف - والا فانه كان يرى أنه أحق الناس بهذا الامر وأن الذين يصرفونها عنه انما كانوا مخطئين فى هذا الصرف ، ولو بعض الخطأ -

واليك رد على على عبد الرحمن عندما قبل هذا خلع نفسه من الخلافة قال عبد الرحمن . أيكم يخرج منها نفسه ، يتقلدها على أن يوليها أفضلكم ، فلم يجبه أحد ، فقال فأنا انخلع منها فقال عثمان أنا أول من رضى ، فقال القوم . قد رضينا ، وعلى ساكت ، فقال . ما تقول يا أبا الحسن ، قال اعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألوا الامة نصحا ، فقال أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا الو المسلمين فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله . فقال لعلى تقول انى أحق من حضر بهذا الامر لقرابتك وسابقتك ؛ أحسن أثرك فى الدين

ولم تبعد فى نفسك ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط احق به ، قال عثمان . وخلا بعثمان فقال . تقول شيخ من بنى عبدمناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ولى سابقة وفضل ، فأين يصرف هذا الأمر عنى ، ولكنه لو لم تحضر أى هؤلاء الرهط احق به . قال . على :

فانت ترى ان عليا كرم الله وجهه لا يتعجل الاجابة على ابن عوف لا بالايجاب ولا بالسلب، وإنما يلتزم السكوت فى الوقت الذى يجيب عثمان بقوله « أنا أول من رضى » ثم يردفه القوم بأنهم أيضا رضوا ولكن عليا لا يزال مصرا على التزام الصمت حتى يوجه اليه عبدالرحمن الحديث مرة اخرى فيجيب على بأنه يوافق ، ولكن على أن يعطيه العهد والميثاق أن لا يتبع الهوى ، وأن لا يؤثر ذارحم لرحمه ، ولا صهرا لصهره واذن فعلى كان — كما قلنا — غير مطمئن الى واحد من القوم لا يرى انه وحده احق بهذا الامر من سائر الناس ، وأنه ظلم ، وبغى عليه ، واليك حديثا آخر دار بين سعد بن

أبى وقاص ، وبين على ، يوضح لنا ناحية اخرى من النواحى التى
كان يرى فيها على انه احق الناس بالخلافة من سواه : لقى
على سعدا فقال له : اتقوا الله الذى تساءلون به والارحام . اسألك
برحم ابنى هذا من رسول الله ﷺ وبرحم عمى حمزة منك
أن تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا ، وهذا قبل ان يدور
ابن عوف على الناس ليعرف اتجاهاتهم نحو على وعثمان :
هذه جمل موجزة لبيان الكيفية التى انتخب بها عثمان لامارة
المسلمين وما آحاط بها من عوامل ، وما بدا فيهما من أغراض
وغايات ، وفيها ايضا بيان موجز لصورة العصر الذى حدثت
فيه هذه البيعة ، وعرض لبعض الشخصيات التى كان لها أثر
بين فيما بعد فى الثورة ، وفى الحروب الاهلية بين على
ومعاوية ، وبين على وأصحاب الجمل ، ولا بد من تسجيل
صورة ولو مصغرة لبعض هذه الشخصيات العثمانية والعلوية
التى لعبت دورا مهما في انتخاب عثمان ، وفى بيعة على ،
واليك ماحدث بالمسجد يوم البيعة لعثمان :

بعد أن جمع عبد الرحمن الرهط من أهل الشورى ،

وأهل السابقة والفضل من المهاجرين والأنصار وأمراء الاجناد. قال:

ايها الناس إن الناس قد اجمعوا على ان يرجع أهل الامصار إلى امصارهم. فأشيروا على فقال، عمار أن اردت ان لا يختلف المسلمون فبايع عليا، فقال المقداد ابن الاسود صدق عمار. أن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا، وقال ابن أبي سرح. أن اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان، فقال عبد الله بن ربيعة. صدقت. ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا فتبسم بن أبي سرح فقال عمار متى كنت تنصح المسلمين، فتكلم بنو هاشم وبنو أمية فقال عمار. ايها الناس. ان الله اكرمنا بنبيه واعزنا بدينه. فانى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم، فقال رجل من بنى مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سمية. وما أنت وتأمير قريش أنفسها. فقال سعد بن أبي وقاص. يا عبد الرحمن افرغ قبل ان يفتتن الناس فقال عبد الرحمن: إنى قد نظرت وشاورت. فلا تجعلن ايها الرهط على أنفسكم سبيلا: —

وإذا كنا لا نحب أن نسهب فى التعليق على هذا الذى حدث بين عمار ومن على شاكلته ، وبين ابن ابى سرح ومن يتحزب له ، فانما ذلك . فقط لاننا نجل جميع الاصحاب الذين رشفوا من معين الوحي النبوى . أن تزل قدم بعد ثبوتها ، مهما اشتد بينهم خطب الخلاف ، وتفاقم عندهم سعير الاضغان

لذلك سوف نمر — على كل ماحدث بين صحابة رسول الله ﷺ من الكرام فنسجل ما يستحق التسجيل — من غير تعليق كبير — وننبذ ما يستوجب النبذ — من دون أن نحقر أو نستهين ، اجلالا لصدر الاسلام وا كباراً لسلف القادة من أهل الايمان :

وبعد ان استقر الامر لعثمان بن عفان — رضى الله عنه — التفت الى شؤن الدولة الاسلامية ، فبدأ بمسألة عبيد الله ابن عمر وقد كان قتل قاتل أبيه أبا لؤلؤة (١) ، وقتل جفينة ، وقتل الهرمزان ، فلما ضربه بالسيف . قال :

---

(١) يروى ابن الاثير انه بعد أن قتل نفرا من الصحابة بعد عمر . نحر نفسه بخنجره ولكن هذه رواية الطبرى

لا اله الا الله : فلما قتل هؤلاء أخـذه سعد بن إبى وقاص وحبسه فى داره ، وأخذ سيفه واحضره عند عثمان ، وكان عبيـد الله يقول . والله لا قتلن رجالا ممن شرك فى دم ابى يعرض بالمهاجرين والانصار . اما السبب الذى من اجله قتل عبيد الله هؤلاء جميعا . مع انه لم يباشر قتل عمر منهم غير ابي لؤلؤة ، فقد قيل — ان عبد الرحمن بن أبى بكر قال غداة قتل عمر — رأيت عشية أمس : الهرمزان ، وأبا لؤلؤة ، وجفينة ، وهم يتباحثون فلما رأونى ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، وهو الخنجر الذى قتل به عمر فلما سمع ابن عمر ذلك غضب وقتل هؤلاء جميعا فلما ولى عثمان . قال أشيروا على فى هذا الرجل الذى فتق فى الاسلام ما فتق فقال على رضى الله عنه — أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين . قتل عمر بالامس ويقتل ابنه اليوم ، فقال عمرو بن العاص . ان الله قد اعفاك ان يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان ، فقـال عثمان . انا وليه ، وقد جعلتهـا دية وأحتملها فى مالى .

على انه قيل فى سبب اطلاق عبيد الله قصة أخرى يرويها ابن الاثير (١) وهى: قال القماديان ابن الهرمزان: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها الى بعض. فمر فيروز ابو لؤلؤة بالهرمزان، ومعه خنجر له رأسان. فتناوله منه وقال ماتصنع به: قال؟ استمن به. فرآه رجل. فلما أصيب عمر. قال. رأيت الهرمزان دفعه إلى فيروز. فأقبل عبيد الله فقتله فلما ولى عثمان امكننى منه. فخرجت به، وما فى الأرض احد الا معى. الا انهم يطلبون الى فيه فقلت لهم. الى قتله قالوا نعم، وسبوا عبيد الله. قلت لهم افلكم. منعة. قالوا لاوسبوه فتركته لله ولهم. فحملونى. فوالله مابلغت المنزل الا على رؤوس الناس.

هاتان روايتان أوردهما المؤرخون فى قصة اطلاق عبيد الله بن عمر، وعدم قتله فى ثلاثة أراق دماءهم من غير

---

١) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٩، ٣٩

حق ظاهر ، اللهم الا فيروزا — على فرض حياته بعد طعن عمر — ولو كان فى قتلهم حق له ، لما كان ذاك اليه وإنما هو الى من [١] وكل اليه اقامة الحدود ، وتأمين السبل ، والتزام كل حده ، وطوره ، لا جرم أن تمسك على بقتل عبيد الله وظل علي رأيه (٢) ذلك حتى ولى الخلافة ، فطلب عبيد الله فهرب منه الى معاوية — رضى الله عنه

---

(١) قال ابو حنيفة ان القصاص لا يستوفى الا بالسيف يقصد ان الامام أو نائبه هو الذى ينفذ حكم القصاص لا الافراد واظن ذلك هو المتناسب مع أحكام الشريعة الاسلامية ، وإلا لكان الامر فوضى و الشريعة تأمر بالنظام

(٢) تمسك على بعد ذلك دليل على أن عثمان لم يحكم به وهو صاحب الأمر على المسلمين ، فيكون حكما واجب النفاذ ، ولا يصح الرجوع فيه لمن يأتى بعده من الأئمة ، وقد يكون حدث ذلك لمجرد تهدئة الثورة • ودفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة ـ اذ « لا ضرر ولا ضرار » ولما رأى على بعد ولايته ان قد هدأت الفتنة بهذا الامر طلب عبيد الله بن عمر ، فلذلك هرب وآواه معاوية ، وظل عنده حتى قتل فى الحرب بينه وبين على فى صفين =

ذلك ... ولا بد من المقارنة بين الروايتين ، وما تلقى كل منهما من شعاع على مقتل عمر ، ثم ما يتبين من خلالهما من قصد اتهام الهرمزان وجفينة ، ومشاركتهما لفيروز ، أو تبرئتهما ، ونفى التآمر عنهما

اما فى الرواية التى تثبت التهمة على الهرمزان وجفينة ، فانها تحكى عن بعض الثقات الذين لا غرض لهم من ورائها

= هذا ولعل عليا كان يرى خطأ عثمان فى هذا الحكم . وانه حكم فى رأيه بغير ما انزل الله ، لان عبيد الله قتل جماعة بعضهم اظهر اسلامه وقت قتله وهو الهرمزان ، والآخر اقل ما فيه انه له ذمة فى اعناق المسلمين ، ما ينبغى ان تخفر ولا حجة له فى قتلهم فانى لعلى - رضى الله عنه - ان يتجاوز عن مثل هذا الدم الذى اريق من غير خفة ، وهو يعلم ان طاعة الخليفة فى هذا غير واجبة . اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقد قال الله سبحانه « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ، وقال « النفس بالنفس » الآية فلعلى كل الحق ، ولعثمان شىء من العذر ، وغفر الله لعثمان ورضى الله عن على ، وعن سائر السابقين الأولين من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان

وهو شاهد عدل لما رآى ، وقد أخبر بأنه رآى هؤلاء الثلاثة يتناجون ومعهم شىء بينهم فلما رأوه ثاروا فسقط منهم خنجر له رأسان وهو الذى قتل به عمر رضى الله عنه

نعم — قد يقال . لماذا لم يلتقط عبد الرحمن هذا الخنجر ماداموا قد ثاروا لرؤيته ، ولم يثبتوا مكانهم . مما يدل على انهم شارعون فى أمر ربما قلب الدولة الاسلامية ، ولعل عبد الرحمن كان خالى الذهن من مثل هذه المؤامرات ؛ فهو لم يعهد امثالها كثيرا فى البيئة الاسلامية ، كما انه كان يستبعد مثل هـذه الافكار أن تسكن فى رؤوس نفر اذلة بين قوم سادة أعزة لو أنهم فعلوا لقطعوا اربا ، ولمزقوا بددا

وأما فى الرواية ، الأخرى . فانها . مع اثباتهـا اصل الاجتماع - تنفى أن يكون بقصد التآمر منهم جميعا ، وإنما هو استرواح بعض العجم الى بعض ، ولم يكن إمساك الهرمزان بالخنجر للتثبت من قيامه بمهمة صاحبـــه ، وإنما هو مجرد الاستطلاع فقط ، كما أن جفينة ايضا كان جاهلا كل الجهل بما حدث حتى قتله عبيد الله وهذا فوق أن فى الرواية الأخيرة

كثيرا من التكلف — ونواحى من اللف والدوران — على انها تروى عن ابن الهرمزان نفسه ، وكأنه أن يريد ينفى عن ابيه تهمة التآمر على رئيس المسلمين خشية منه وحذرا — لذلك يقول ابن الاثير . والأول اصح في اطلاق عبيد الله . لان عليا بعد ذلك طلبه فهرب منه الى معاوية بن ابى سفيان

على أن أمرين آخرين لا بد من تفنيدهما قبل مغادرة هذه المسألة : وهما

١ ـ هل حدث قتل عبيدالله لهذا النفر وقت وفاة عمر أو بعدها ٢ ـ هل اشترك كعب الاحبار فى هذه المؤامرة الخطيرة ولماذا لم يتعرض له ابن عمر كما تعرض لصاحبيه ، مع أن التهمة له أظهر

١ — اما عن المسألة الأولى . فانه ليخيل الينا . أن القتل لهؤلاء الفرس انما حدث بعد موت عمر . فاننا لانجد رأيا له رضى الله عنه . فى مثل هذه المسألة على خطورتها ، على أن الهرمزان ليس بالشخصية المجهولة . فهو قد كان من عظماء فارس ، وهو أيضا لا يزال موضع اجلال عمر ، يستشيره

ويأخذ برأيه في كثير من مشاكل الفرس الداخلية وغيرها وجفينة ظهير لسعد بن مالك

على أننا اذا قطعنا النظر عن كل اعتبـار آخر . نرى أن الهرمزان عندما ضربه ابن عمر . يقول : لا اله الاالله ، فمعنى ذلك أنه أسلم ، وأنه لا يحل لعبيد الله قتله ـ الا بحق ولا حجة على تلوث الهرمزان بدم عمر . فأنى للمسلمين ـ وهم لم ينأ بهم الزمن بعد عن صاحب الشريعة ـ ان يروا مثل هذا الدم يراق بغير حقه . ولا يقتصون من القاتل . وسيما عمر فعمر إذن لم يكن موجودا وقت قتل الهرمزان وصاحبه ـ أو صاحبيـة والا لرأينا منه موقفـا آخر يتناسب ومواقفه الحاسمة فى تاريخ الاسلام ثم انه يوجد هناك دليل آخر يؤخذ ضمنا من حديث المؤرخين بصدد هذه المسألة ـ فقد روى : أن عبيد الله لمـا قتل الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة (١) أيضا لحقه سعد بن وقاص . فقبض عليه وحبسه وأخذ منه السيف

---

(١) هذا على القول بعدم انتحاره بخنجره وقت الحادث

وأحضره الى عثمان (١)

واذن فلم يحضره سعد الى عمر ، ولم يحضره كذلك الى أهل الشورى جميعا وانما أحضره الى عثمان. والى عثمان بالذات . وأظنك تعلم ان عثمان انما تولى الخلافة بعد موت عمر بأيام . ولذلك رأينا عثمان يأمر باحضار عبيد الله . ويستشير كبار الصحابة . ثم يرفض الرأى القائل بقتل عبيد الله . ويجعل عوض القصاص دية يحتملها فى ماله ـ حيث هو صاحب الامر : والمهم من ذلك كله . أن عمر لم يكن حين قتل ابنه عبيد الله بعض رجال من فارس .

أما عن مسألة « كعب الاحبار » واشتراكه فى التآمر على عمر ، فان من العسير على من يقرأ قصته باهتمام أن يخلى طرفه من هذه التهمة ؛ وإن صح مايروى عنه مع عمر ، فانه يكون ـ بلا ريب ـ من أبطال هذه المؤامرة الخطيرة بل لعله الروح الفعالة فى حبكها وأحكامها ، واليك خلاصة هذه القصة .

«١» الكامل لابن الاثير حـ ٣

بعد حوار وجيز بين عمر - رضى الله عنه - وبين فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، شاكيا الى عمر كثرة خراجه وقله ايراده - ثم مصرحا بكلمات فهم منها عمر روح التهديد والوعيد ، وان كان لا يعبأ بمثلها ومثل المصرح بها . لظروف الناس وقتئذ - بعد هذا غدا اليه كعب الاحبار ، وقال له . يا أمير المؤمنين انك ميت بعد ثلاث فاعهد ، فقال له عمر ، وما عرفك هذا ، فيقول كعب انه يجد هذا في التوراة ، ثم يكرر كعب الاحبار هذه النصيحة لعمر مرتين أخريين ، وفى اليوم الثالث تقع الجريمة الشنيعة من فيروز غلام المغيرة ثم يدخل كعب على عمر فيمن يدخل من الناس ، فما يكاد عمر يراه حتى يقول .

توعدنى كعب ثلاثا أعدها
ولا شك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت أنى لميت
ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

هذه هى القصة كما يرويها المؤرخون، والغريب المدهش

أن تروى على انها من الامور العادية التى يسوغها العقل ، ولا ينبو عنها المنطق ولكن لو اننا سلطنا عليها شيئا من عصارة الافكار الاسلامية ، ووضعناها فى ميزان النقد والتحليل التاريخى لتبين لنا انها موضوعة من أساسها، مقوله على السنة طالما كادت للاسلام ، وبغته عوجا .

ذلك . وان الناظر فى هذه القصة ، أو بالحرى الاسطورة ليرى فيها . أن عمر كان رجلا من رجال التصوف فى الايام الاخيرة ، يصدق كل مايلقى اليه ولا يأبى أن يستمع الى حديث الغيب ، وان يوافق المتحدث به ، وتصور القصة لنا كعب الاحبار بصورة الرجل الناسك الزاهد الخائف على الاسلام والمسلمين فى شخص أميرهم ورئيسهم كما انها تدعو من طرف خفى الى الايمان بكتب اليهودية ، وتقديس هذه التوراة التى يستند اليها الاحبار من اخوان كعب ووهب ، وابن السوداء ، وان ذكر الكتاب أن التوراة والانجيل لحقها التبديل والتغيير ، وان اليهود بنوع خاص يحرفون الكلم عن مواضعه ، وانهم من شر خلق الله انسانا وان الله سبحانه قد

غضب عليهم ولعنهم ، وجعل منهم القردة والخنازير ، ومن عبد الطاغوت .

فمن غير الممكن عقلا ان نسلم بهذه القصة على علاتها ، بل . أما أن يكون لكعب ضلع فى هذه المؤامرة وأراد تبرئة نفسه . فقال ذلك ؛ فلم يعره عمر اهتماما ، تحقيرا لشأنه - على أن يكون الثابت هو - فقط - أصل القصة ؛ لا هذا الخضم من الاكاذيب والمفتريات التى حشيت بها القصة .

وأما أن تكون القصة مختلقة ؛ والغرض منها . هو الغاية من كل ما وضعه اليهود والنصارى ومن لف لفهم . من لفت الناس عن الاسلام . بادخال الخرافات فيه . والنيل من الشخصيات التى قام عليها . وتصوير القادة الذين نشروه بصور خيالية تشمئز من سماع الحديث عنها والعقول الصافية . والالباب الناضجة .

(ولنا عودة لتوفية الموضوع فى فرصة مستقبلة ان شاء الله)

تم القسم الاول (ا) ويليه الاول (ب)

وأوله : حروب عمر رضى الله عنه

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١١	واولئك هم الرجال	وأولئك الرجال
٤	٨	مجرده من الحق	مجرده إلا من الحق (المقدمة)
٦	١١	بتشاورون	يتشاورون (الخلافة)
٨	٨	طوفى	طرفى (بيت الخليفة)
٩	٧	تعاليقه	تعاليمه (بيت الخليفة)
١٦	١١	أيا حسن	أبا حسن
١٧	١	وتطعن	ونطعن
١٧	٤	لا اعتذار	لا أعتذر
١٧	١١	مساهموا فى	ساهموا فى
٢٠	١	الزمر	الزمن
٢١	١٣	التخصص	التخصيص
٢١	١٦	والبيت الحرام	البيت الحرام
٢٢	٦	التخصص	التخصيص
٤٠	١	الغرب	العرب (حاشية)
٤٠	١٦	الاذارة	الادارة
٤٣	٨	قصل	فصل
٤٣	١٢	تظهرهم	نظرهم
٤٣	١٣	ليتظهروا	ليظهروا

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٤٣	١٣	من أول	أول من
٥٠	٩	يعيد محمدا	يعبد محمدا
٥٠	١٣	سيجرى	سيجزى
٥١	١٤	وحديت	أو حديث
٥٨		الربيع (حاشيته)	الديبع (حاشيه)

ويقاس عليها اشباهها من الاخطاء الأخرى اذ رغم كثرة المراجعة والتصحيح لم نقو على معالجة السرعة التى استعملناها لاخراج هذا الجزء . وماتوفيقنا الا بالله ؟

الخلافة الاسلامية

القسم الأول

ب

عصر الراشدين

بقـــلم

عبد الحميد بخيت

المدرس بكلية أصول الدين

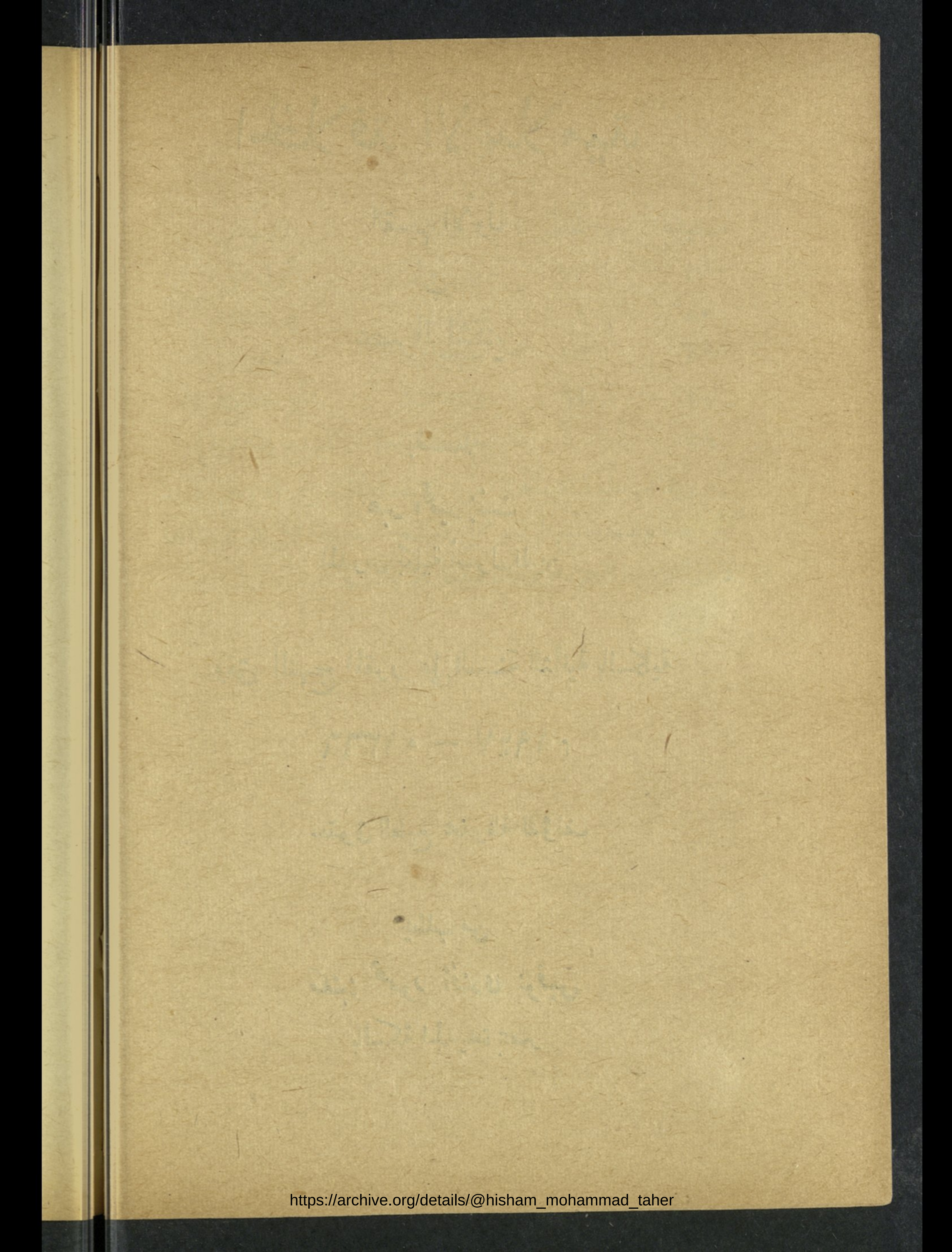
وفق المنهج المقرر على السـنة الثانية بالـكلية

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

يطلب من

مكتبة محمود أفندى توفيق

بالسكة الجديدة بمصر



موضوعات الكتاب

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه بقية القسم الاول من مذكرات الخلفاء الراشدين وفق المنهج المقرر على كلية أصول الدين وسميناها بعنوان (القسم الاول ب من الخلافة الاسلامية)

لقد كنا نحب أن نخرج هذا الكتاب بشكل أحسن، وطبعة أجمل، وأسهاب أوفى، وأن نضع له من الصور المناسبة والخرائط الملائمة ما يجدر باعظم عصر وضع للناس وسلف للدولة الاسلامية العظمى.

ولكن تألب الظروف فى أعقاب حرب ضروس، وصعوبة الطبع والنشر وما إليهما كل ذلك جعلنا نسرع بتسجيل هذه المذكرات العاجلة للنفع الخاص راجين أن نوفق لاخراجها قريبا فى صورة تليق بالنفع العام.

ولقد كتبنا فى هذا الجزء عن الحروب بادئين بعهد عمر الذى انتهينا إليه فى الجزء الاول من القسم الاول وقد عالجنا

هذا اللون من التاريخ علاجا نظن أنه جديد ومفيد .

ذلك أن معالجة الحروب فى كتابات جمهرة المؤرخين كانت عبارة عن وصف للطعن والضرب والقتل والاسر ، واحصاء عدد الذين قتلوا أو أسروا وعدم العناية بالمحاورات والمناظرات التى كانت تسبق الحروب الاسلامية عادة .

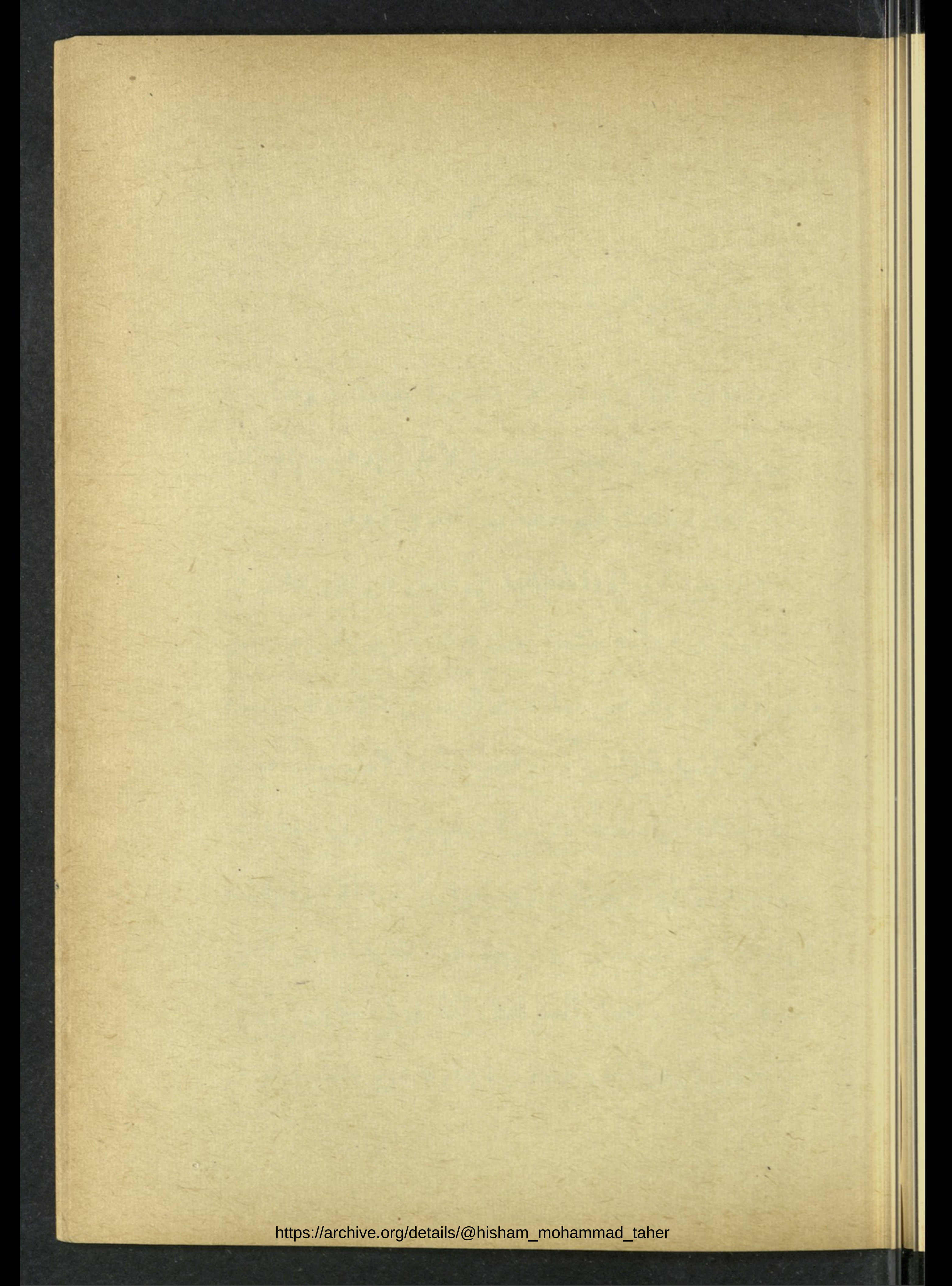
كذلك لانرى من عنى عناية تذكر بتسجيل المعاهدات وعهود الحرب التى كانت تسفر عنها هذه الحروب في كثير من الاحيان ، فضلا عن النتائج السياسية والاجتماعية والدينية التى تنجم عن هذه الحروب ولقد حاولنا أن نتلافي هذه الناحية ، إذ جعلنا هدفنا الرئيسى من دراسة تلك الحروب تتبع المحاورات بين المسلمين وأعدائهم فى الشرق والغرب فى هذه الحقبة من التاريخ .

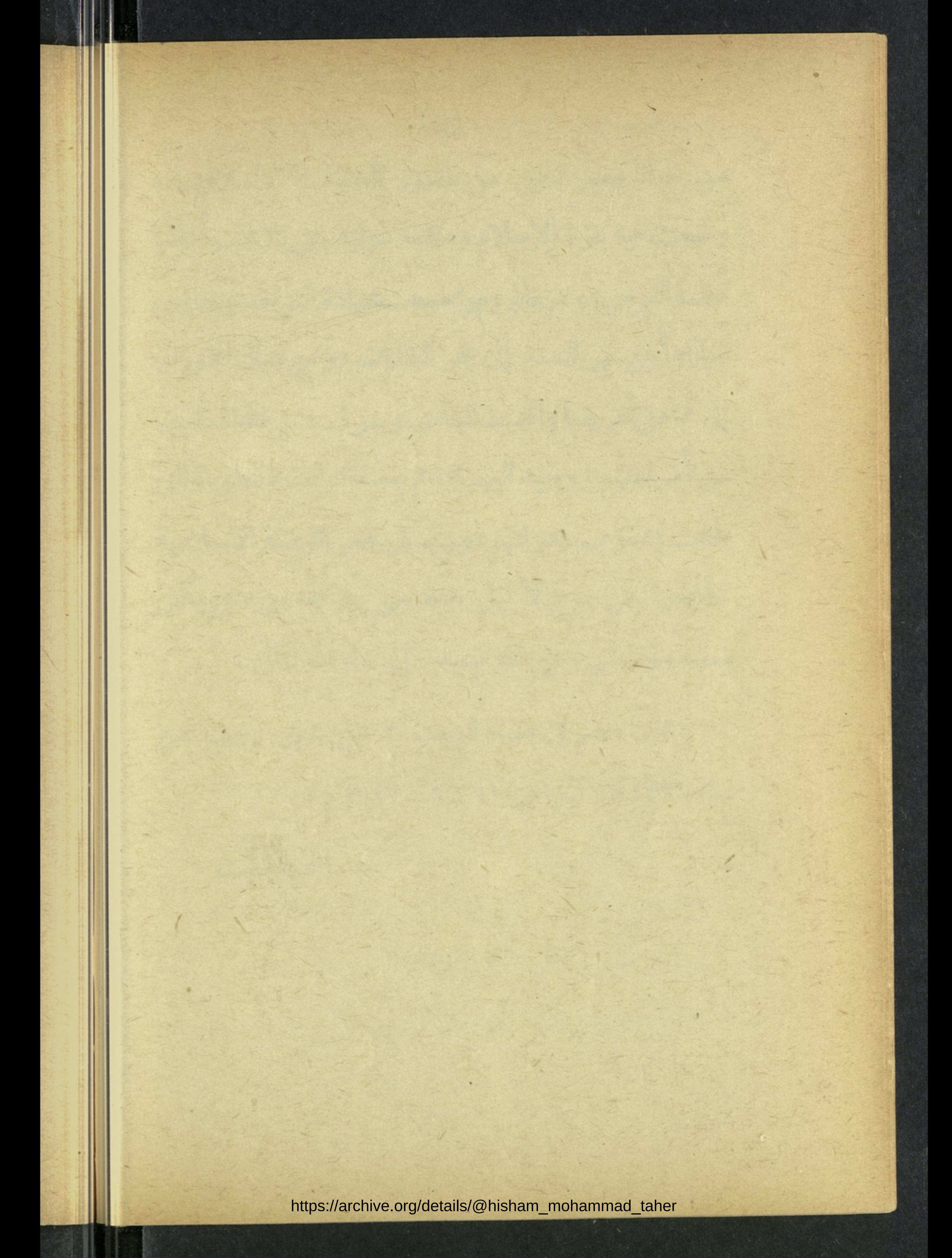
كما أننا سجلنا كثيرا من العهود والمعاهدات ، وأوضحنا بعض النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وأخيرا - فاننا مع وجازة العبارة التى تعمدناها فى تصوير الحوادث عما الجأتنا إليه الضرورة المنهجية - نعتقد أننا كشفنا بعضا

من خبانا عصر ذهبي من عصور الخلافة الاسلامية ، وضحت فيه عزة الاسلام وعظمة دولته حتى تلاشت أمامها عظمة الفرس ، وعزة الروم واصبحت شهادة التوحيد بتجاوب صداها من نهر السند إلى بحر الظلمات ، ومن جبال الاورال إلى مجاهل أفريقيا والمحيط الهندى وسوف يشفى الله المسلمين من أمراضهم ، ويعيد اليهم مجدهم بعد تلك الفترة الطويلة التى لحقت بشعوبهم ودولتهم ، وسيسفر فجر النهضة الاسلامية الحاضرة عن صبح لا ليل بعده حتى يتم الله نوره ، ويكمل نعمته ، وما شىء على الله ببعيد ، إن شاء الله تعالى .

شبرا مصر فى مساء السبت ٢ من شهر رجب من سنة ١٣٦٦ هـ . الموافق ٢١ ـ ٦ ـ ١٩٤٧ م .

عبد الحميد بخيت





١ — من هو عمر ؟

يتحدث التاريخ عن عمر مفاخرا بفضائله وعبقريته والحق أن الرجل يستحق التقدير والاطراء إذ هو من أولئك القلائل الذين سجلت لهم صفحات المجد والخلود .

وينتسب عمر الى الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب بن لؤى ، وأمه ضنتمة بنت هاشم من بنى مخزوم ، فعمر قرشى أصيل ، ولد عمر بعد مولد الرسول بثلاث عشر سنة وتربى على الشهامة والجرأة . والصراحة ، وكانت سنه حينما اكرم الله محمد بن عبدالله بالرسالة ، سبعا وعشرين سنة ، فلما دعاه الرسول الى الاسلام ، لم يقتنع فى بادىء الامر ، ولذلك كان شديدا على المسلمين . وحاربهم حربا شديدة ، حتى كانت هجرة الحبشة ، وتحمل المسلمين الاذى فى سبيل دينهم ، فأخذ يفكر في هؤلاء وحدهم وما يلقونه من عنت ، ثم فى

مبادىء الدين الجديد ، وأغراضه ومراميه ، ثم شرح الله صدره للاسلام. فاسلم واعلن اسلامه فى وقت لم يستطع غيره ان يقول كلمة الحق الا مستخفيا او من وراء جدر ، لكن عمر قال لا اله الا الله على ملأ من زعماء الوثنية وسادة قريش مما يدل على مبلغ قلب الرجل ، وشجاعته وصراحته . وقد تحمل من أذى المكيين مالا قبل لاحد باحتماله حتى أجاره العاص بن وائل السهمى.

ولما هاجر الرسول ، اشتد أذى المشركين للمسلمين حتى كان من يعرف انه سيهاجر يعد له اللون المناسب من التعذيب والعقاب . واما عمر فانه حينما اعتزم الهجرة لم يستطع أحد ان يتبعه فيلحق به أذى

حضر عمر جميع المشاهد مع رسول الله . وكان مع ابى بكر كالوزيرين للرسول الكريم وتزوج الرسول حفصة ابنته ، وظل موضع تقدير النبى وجميع المسلمين حتى توفى الرسول وكانت خلافة أبى بكر . فآزر ابا بكر ووقف الى جانبه بل كان اسبق الناس الى مبايعة ابى بكر ، وأعرفهم

بحقه وقدره .

ولما اشتد على ابى بكر مرضه الاخير استشار المسلمين في تولية عمر من بعده فكلهم رضى به وزكاه ، فاستدلوا به خلافة المسلمين من بعده ، فكانت خلافته بركة للدولة ، وخيرا لجميع افراد الامة . وها هى ذى ناحية من اعماله ، تسجلها فى توجيهه لدفة الحروب فى الجبهتين الشرقية والغربية ضد الروم والفرس اللتين اقتسمتا ملك الدنيا حينئذ ، وقد استطاع ان يوقع الهزيمة بهاتين الدولتين ، وان يزيل احداهما من الوجود كما تراه بعد

سياسة عمر :

على اننا نرى حتما علينا ان نوجز منهج عمر الذى يتضح فى خطابه الاول الذى اذاعه وقت بيعته قال :

إنما مثل العرب كمثل جمل آنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على

الطريق [١] . يقول الاستاذ سيد أمير على (تأثرت سياسة الدولة باخلاق عمر على وجه خاص ، سواء كان ذلك فى حياته ام بعد مماته . اذ كان هدفه الرئيسى . هو توحيد شبه الجزيرة العربية ، وصهر القبائل فى جامعة عربية موحدة.. وثمة مناح اخرى من سياسته خليقة بان نوجه اليها اهتمامنا واولاها اجلاء جميع العناصر القادمة من شبه الجزيرة لكى تخلو للعرب وحدهم ، وثانيها عدم التطرف فى الفتح ، وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره ان يدرك ان توطيد دعائم الامبراطورية وترقيتها ماديا يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الاصليين . وتحقيقا لهذه الغاية منع بيع الاراضى الزراعية فى الامصار المحتلة . كما سن قانونا يحظر فيه على العرب امتلاك الاراضى والضياع [٢] .

وعلى الجملة فان عمر كان فى الحقيقة الرجل الموهوب الذى

---

(٢) ابن الاثير حـ٢ ص٢٦٣

(٢) مختصر تاريخ ص٥ - ٥١

جعل للاسلام دولة قوية مرهوبة الجانب ، ونشر فيها لواء العدل وثقافة الاسلام وخلقه وكان هو نفسه المثل الاعلى فى التمسك بتعاليم محمد رسول الله ﷺ ومبادىء القرآن

حروب عمر فى الميدان الشرقى

اسلفنا القول بأن المثنى بن حارثة الشيبانى ، حينما رأى ملك الفرس قد حشد جيشا كثيفا وجلاء العرب عن المراكز التى احتلوها، انسحب الى الوراء قليلا ثم اسرع وحده إلى المدينة يطلب المدد من الخليفة ، فوجده على فراش ، وان قد اوصى ان يرعى عمر - وهو الخليفة بعد ابى بكر - جيش المثنى ، وان يمده بما يطلبه ، وقد نفذ عمر وصية أبى بكر فى اليوم التالى لوفاة أبى بكر . إذ ندب الناس مع المثنى الى أهل فارس قبل صلاة الفجر [1] . وظل عمر ثلاثة أيام يجهز الجيوش ويستعرضها ثم امر عليها ابا عبيد بن مسعود الثقفى . وهو والد المختار بن

---

(١) ابن الأثير حـ٢ ص ٢٩٧

عبيد ولما ازمعت الجيوش على التوجه شطر الميدان الشرقى بالعراق ، قام المثنى فخطب خطبة مطمئنة للناس . قال فيها «أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق الوادى ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا انشاء الله ما بعدها .

وقد خيب عمر رجاء المسلمين فى تولية هذا الجيش لاحد كبار المهاجرين والانصار ، قائلا . لا وَالله لا أفعل . إنما رفعهم الله تعالى لسبقهم ومسارعتهم الى العدو . فاذا فعل قوم فعلهم وقاتلوهم ، كان الذين ينفرون خفافا وثقالا ، ويسبقون الى الدفع اولى بالرياسة منهم والله لا اؤمر عليهم الا اولهم انتدابا ثم دعا ابا عبيد وسعدا وسليطا ، وقال لهم لو سبقتماه لوليتكما ولادركتما بها الى مالكما من السابقة . فأمر ابا عبيدة على الجيش وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الامر ، ولا تجتهد سرعا حتى تتبين [1] .

---

(١) ابن الاثير حـ٢ص٢٩٨

موقعة الجسر

وصل المثنى الى ميدان القتال ، ثم تبعه أبو عبيد بجيشه والتفت الجيوش بالحيرة ، فشنت الحرب على الفرس الذين ثار دهاقينهم بامر رستم قائد جيش فارس ، والقابض على مقاليدها وكانت أولى المواقع المهمة بين الفريقين موقعة «المروحة» على الشاطىء الغربى لنهر الفرات وفيها قتل أبو عبيد الثقفى ، وسبعة ممن حمل اللواء بعده ، ويقال أن أبازبيد الطائى النصرانى قاتل حمية للعرب ، وكان سببا فى انقاذ مابقى من جيش أبى عبيد الذى لم يختر لجيشه موقعا مناسبا كما نصحه المثنى .

موقعة البويب

بيد أن جند الفرس - رغم انتصارهم ، لم ينتهزوا فرصة هذا الفوز الباهر فى موقعة المروحة « الجسر » التى حدثت فى شهر شعبان من سنة ١٣ ه[١] وظلوا متمسكين بمواقعهم على جسر الفرات ، وبلغ عمر خبر هزيمة جيشه ، فارسل جيشا بقيادة جرير بن عبد الله البجلى ، الذى استطاع ان

---

(١) نفس المصدر السابق .

يجمع من مقطوعة بجيله عدد الغير قليل على أن ينفلهم عمر ربع الخمس من الغنيمة .

كذلك أمد عمر المثنى بجيش آخر بقيادة عصمة بن عبد الله الضبي ، واستنفر عمر والمثنى أهل المودة ، فاجابوا ونفر منهم جم غفير ، وقصدت هذه الجموع الى الحيرة حيث جيش فارس مرابط فى جسر الفرات .

وقد التفت الجيوش الاسلامية جميعها بمعسكرات البويب (١) المقابل لموقع الجيوش الفارسية ، وقد كانت هذه الجيوش محصورة بين نهر الفرات وفرع البويب .

كان قائد الفرس لهذا الجيش (مهران) فأرسل إلى المثنى يخيره بين العبور إلى الفرس ، أو عبور الفرس اليه ، فطلب المثنى منه أن يعبر هو بجنده ، فعبر مهران وصف جيشه إلى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل عظيم ، والرجالة ، أمام الفيل ينشدون نشيد الامبراطورية الخالدة (٢)

«١» البويب نهير بالعراق «٢» ابن الاثير ج٢ ص ٣٠٤ ويقول=

بيد أنه ، ما كادت تدور رحى المعركة ، حتى انزل المسلمون بعدوهم هزيمة منكرة ويقال أن المثنى طلب من انس بن هلال النمرى والذى لم يسلم بعد ، أن يعين المثنى على قتل مهران قائد الجيش ، ثم قتل مهران بيد غلام نصرانى من تغلب[1] وفر من بقى من الفرس ، فتبعهم المسلمون الى (ساباط) وراء الدجلة . ثم دخل المسلمون الحيرة عنوة وتم لهم النصر على هذا الجيش وكان ذلك فى سنة ١٣ هـ

القادسية

فى هذه الاثناء اعتلى يزدجرد عرش الفرس – وكان شابا طموح النفس ، لم يوطد العزم على طرد العرب من الحيرة فحسب ، بل عقد النية على اجتياح بلادهم . فارسل الى كلدة جيشا مؤلفا من مائه الف مقاتل ، فلما رأى المثنى قلة جيشه انسحب من كلدة الى حدود الصحراء ، واخذ ينتظر وصول الامداد التى طلبها من المدينة والتى أخذ عمر يبذل

= واقبل الفرس فى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم امام فيلهم ولهم زجل فقال المثنى للمسلمين الذين تسمعون فشل فالزموا الصمت ((١)) المصدر السابق

مجهودا جبارا فى جمعها وتجهيزها حتى لقد تظاهر بأنه سيصحب الجيش بنفسه ، وأوصى الجيش وأهتم به غاية الاهتمام .

أما الفرس فانهم بعد هزيمة جيش مهران ، نظروا إلى أنفسهم ، وعملوا لم شعثهم وتوحيد كلمتهم لمقابلة العرب جبهة متحدة ، ويدا واحدة . فاتفق رستم والفيرزان وسائر القواد على أن يعملوا تحت امرة الامبراطور الشاب (يزدجرد) حفيد كسرى وقد تبارى الرؤساء فى طاعته ، وجمع الجيوش وتجهيزها للدفاع عن الامبراطورية التى سلخ منها العرب «الحيرة وساباط وتكريت» وهم بصدد احتلال المدائن العاصمة الكبرى للامبراطورية .

ولذلك جهز الفرس جيشا كثيفا ، وقسموه إلى فرق أسموها بأسماء النواحى التى فتحها المسلمون .

بلغ ذلك المثنى ، فكتب الى عمر باجتماع الفرس على حرب المسلمين وطردهم من مراكزهم ولكن قبل وصول جواب عمر ، قام أهل السواد ونقضوا عهد المسلمين ، ورفعوا لواء التمرد والعصيان فانسحب هؤلاء من بلاد الفرس ،

وعسكروا فى حدود بلاد العرب على مصبات الفرات وفى هذه الاثناء توفي المثنى متأثرا بجراحه أو بحمى أصابته [1]

قيادة سعد ابن أبي وقاص

وتولى القيادة من بعده سعد بن أبى وقاص ، وقد جاء على رأس جيش كبير لتعزيز جيش المثنى، فبلغ بذلك جيش المسلمين حوالى ثلاثين الفا .

أما عن السبب في اختيار سعد للقيادة العامة ، مع أن الرجل الذى كان يجب تقديمه على الجميع هو أول من دخل هذه البلاد غازيا منتصرا . فهو أولا ما أسلفنا الحديث عنه من أمر خالد بن الوليد ونقمة عمر عليه مسلكه نحو مالك بن نويره مما دفعه لعزله عن القيادة حتى فى الميدان الغربى ، وعلى الرغم من أبا بكر قبيل وفاته أوصاه بأن يعيد جند

---

(١) يقول ابن الاثير أنه كان قد جرح وان جراحه انفجرت فتوفى ، ويقول سيد امير على ان حمى كلدة هى التى فتكت بالمثنى « انظر ح ٢ من الكامل فى التاريخ ، ومختصر تاريخ العرب « الترجمة العربية » .

الميدان الشرقى الى حيث كانوا بعد أن انتدبهم أبو بكر الى حروب الروم .

نقول على الرغم من وصية أبى بكر ، فان عمر أصر على ابعاد خالد نهائيا عن شئون القيادة لانه اعتقد أن فى سيفه رهقاء ، وخالد كما ابنا هو أول قائد عام هزم الفرس فى الميدان الشرقى .

ثم السبب الثانى أنه أراد ان يختار رجلا ذا خبرة وكفاية حتى يستطيع مواجهة جمعها الفرس ، وتدبير اعظم جيش اسلامى منذ موقعة اليرموك فى سنة ١٣ ﻫ . يقول ابن الاثير لما اجتمع الناس الى عمر خرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى «صرار» فعسكر به ولا يدرى الناس مايريد ، أيسير أم يقيم ، وكانوا اذا أرادوا أن يسألوه عن عن شىء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فان لم يقدر هذان على علم شىء مما يريدون تلقوا بالعباس بن عبد المطلب . فسأله عثمان عن سبب حركته فاحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم فى المسير الى العراق . فقال العامة . سر وسر بنا معك . فدخل

معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه برفق، وقال اغدوا واستمدوا . فانى سائر الا ان يجىء رأى هو امثل من هذا . ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب ، وأرسل الى على وكان استخلفه على المدينة فأتاه والى طلحة وكان على المقدمة فرجع اليه ، والى الزبير وعبد الرحمن ، وكانا على المجنبتين فحضرا ، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله، ويقيم ويريمه بالجنود . فان كان الذى يشتهى فهو الفتح . وإلا أعاد رجلا ، وبعث آخر ، ففى ذلك غيظ العدو . فجمع عمر الناس وقال لهم . انى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم . وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا فاشيروا على برجل ، وكان سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن ، فكتب اليه عمر بانتخاب ذوي الرأى والنجدة والسلاح . فجاءه كتاب سعد وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول قد انتخبت لك الف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ، ويمنع ذمارهم اليهم انتهت

احسابهم ورأيهم. فلماوصل كتابه ووافق مشورتهم قالوا العمر قد وجدته . قال . من هو قالوا . الاسد عاديا سعد بن أبى وقاص . فانتهى الى قولهم وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه وقال (لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته . والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء . الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت رسول الله يلزمه فالزمه ، ووصاه بالصبر وسرحه فيمن اجتمع اليه من نفر المسلمين وهم أربعة الاف فيهم حميضة بن النعمان على بارق ، وعمرو بن معديكرب وابو سبرة ابن ذؤيب على مذحج ؛ ورجال على قبائلهم . ثم خرج فمر بفتية من السكون مع حصين بن نمير ومعاوية بن حديج ، فاعرض عنهم ، فقيل له . مالك وهؤلاء . فقال . ما مر بي قوم من العرب أكره الىَّ منهم ، ثم أمضاهم . فكان بعد

يذكرهم بالكراهة (١)

لم يدخر عمر جهدا الا بذله فى هذه الحملة ، وأمر على الجيش سعد بن وقاص الزهرى القرشى ، وبعد أن نصحه وأوصاه أشار عليه بأن يعسكر في مكان حصين فى زرود .

وصل سعد الى المكان المذكور ، وفيه فض وصية المثنى وقرأها ، وفيها ينصحه أن يقاتل الفرس على حدود العرب ، وان يحذر من خداع الفرس ، واذ قد كان الفرس على أهبة القتال فقد سار سعد حتى التقى بهم بعد أن أرسل كتابا إلى امبراطورهم يدعوه الى الاسلام أو الجزية فلما وصل الرسول بالكتاب الى يزدجرد ومعه وزراؤه ، واستأذنوا بالدخول فاذن لهم وسألهم عما جاء بهم فقال لترجمانه سلهم مالذى دعاهم لغزو أرضنا وبلادنا . امن أجل تشاغل الفرس عنهم أم ماذا . فاجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن بقوله « أن الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا

---

(١) ابن الاثير حـ ٢ ص ٣٠٩ - ٢١٠

بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والاخرة فلم يدع قبيلة ألا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمرنا أن نبتدى الى من خالفه من العرب فبدانا بهم فدخلوا معه على وجهين . مكره عليه فاغتبط، وطائع فازداد فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينامن الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله : فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية . فان أبيتم فالمناجزة . فان اجبتم الى ديننا خلفنافيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم والاقاتلناكم»

فتكلم يزدجرد فقال: انى لا اعلم فى الارض امة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم، كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوننا أمركم . لا تغزوكم فارس ولا تطمعوا ان تقوموا لفارس . وان كان غرر لحقكم فلايغرنكم منا . وان كان الجهد دعا كم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم

وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم.

فقام المغيرة بن زراره فقال :

أيها الملك ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم اشراف يستحيون من الاشراف وانما يكرم الاشراف ويعظم حقهم الاشراف ، وليس كل ما ارسلوا به قالوه ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه . وقد احسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاوبني لأكون الذي ابلغك وهم يشهدون على ذلك لي :فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد. ثم ذكر جيش العرب وارسال الله النبي صلى الله عليه وسلم اليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية . ثم قال : اختر ان شئت الجزية عن يد وانت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك . فقال يزدجرد اتستقبلني بمثل هذا؟ فقال المغيرة ما استقبلت الا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم استقبلك به . فقال يزد جرد : لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي . ثم استدعي بوقر من تراب . فقال احملوه على اشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن. ارجعوا

الى صاحبكم فأعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية وينكل به وبكم ، ثم أورده بلادكم حتى اشغلكم بانفسكم باشد مما نالكم من سابور . فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وقال - أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحمله على عنقه وخرج به من الايوان وولى الى راحلته فركبها واخذ التراب حيث عاد الرسل جميعا الى سعد بن ابي وقاص

وبعد ذلك نرى ان الفرس وعلى رأسهم يزدجرد كانوا مستهينن بأمر العرب أو بعبارة أدق تظاهروا بعدم المبالاة بهؤلاء العرب الذين ظلوا أحقابا لا تقوم لهم دولة موحدة كالدولة الفارسية وظلوا نبذا هنا وهناك فى شبه الجزيرة الجرداء واحسنهم حالا اولئك الجند المرتزقة الذين يستجلبهم مناذرة الحيرة وغساسنة الشام للقتال فى جيوش الفرس والروم ولم يكن واحد من آل المنذر بن ماء السماء ولا أمير من أمراء غسان ، سواء فى أيام الحرب أو السلم إلا وسيطا مأجورا بين القبائل العربية وبين الدلتين الفارسية والرومانية .

ولئن شئنا الحق والصراحة ، فاننا يجب ان نقول فى

صراحة وحزم . ان أول رجل جاهد فى سبيل توحيد شبه
الجزيرة - وخلق من ضعفها وتناحرها قوة واخوة ، وجعلها
كالبنيان المرصوص أو كالجسد الواحد انما هو سيدنا محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ، ولذلك كان كل رسول
من رسل سعد الى يزدجرد - كما أسلفنا - يبدأ حديثه
بحال العرب ثم يكر مسرعا الى ما بذله الرسول فى ترقية
هؤلاء وتعليمهم ، وهذا ليس من باب التبرك - كما قد يفهم
الجاهلون بتاريخ الاسلام ولكن من باب الاشادة والقاء
الرعب فى نفس السامع بان حال العرب قد غيرها محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وانهم اليوم غيرهم بالامس ولهذا نرى
ان ننقل لكم المحاورة الآتية بين يزدجرد وبعض خلصائه .
لتروا مبلغ ترددهم وخشيتهم من العرب المسلمين :

قال الملك لرستم وقد استدعاه من ساباط . فحضر -
ماكنت ارى ان فى العرب مثل هؤلاء - ما أنتم بأحسن جوابا
منهم ، ولقد صدقنى القوم . لقد وعدوا أمرا ليدركنه أو ليموتن
عليه ، على أنى وجدت أفضلهم احمقهم ، حيث حمل التراب على

رأسه فخرج به فقال رستم : ايها الملك: إنه أعقلهم ، وتطير الى ذلك وأبصرها دون أصحابه ، وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا وبعث فى أثر الوفد وقال لثقته ، ان ادركهم الرسول تلاقينا أرضنا ل إن اعجز سلبكم الله ارضكم فرجع الرسول من الحيرة بقواتهم فقال : ذهب القوم بأرضكم من غير شك . وكان رستم منجما كاهنا (١) .

على أن تطير رستم قد استبشر به عاصم والمسلمون فقد قال هذا الرجل وقد ذهب يحمل التراب الى القائد سعد ابشر فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم

ولكن على الرغم من جراءة المسلمين على الفرس ، فانهم كانوا يخشون قوتهم ويقدرون خطرهم وعلى رأسهم الخليفة عمر بن الخطاب الذى لم يزايله التفكير لحظة فى هذه الحملة المغامرة فى الميدان الشرقى . فقد سبق أن أشرنا الى وصيته لقائد الجيش بالاناة والصبر والحذر والرفق بجيشه الضئيل

---

(١) ابن الاثير ج٢ ص ٣١٦

الى جانب قوة عدوه وعدد جنوده ثم لم يكد يصل سعد الى «شراف» حتى كتب اليه عمر يقول .

أما بعـد فسر الى شراف نحـو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعذ به على امرك كله واعلم فيما لديك انك تقـدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وعلى بلد منيع . وان كان سهلا لبحوره وفيوضه الا ان توافقوا غيضا من فيض . واذا لقيتم القوم اواحداً منهم فابدؤهم الشد والضرب .

وأياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم ، فانهم خدعة مكرة . أمرهم غير أمركم إلا ان تجادوهم ، واذا . انتهيت الى القادسية ـ والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى اجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصل . وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وانهار ممتنعة ـ فتكون مسالحك على انقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا احسوك أبغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم

وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم — واحتسبتم لقتاله وأديتم الأمانة . رجوت ان تنصروا عليهم ثم . لا يجتمع لكم مثلهم ابدا . الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ،وان تكن الأخرى كان الحجر فى ادباركم فانصرفتم من ادني مدرة من أرضهم الى ادني حجر من ارضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم . وكانوا عنها اجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة .

ولم يكتف عمر بهذا الكتاب ـ الذى نرى توافقا كبيرا بينه وبين وصية المثنى لسعد مما يدل على توارد خواطر الرجلين عمر والمثنى ـ بل انه أرسل اليه كتابا آخر يعظه فيه ويذكره وينصحه بأن يكثر من ذكر الله ودعائه وان يصبر عند القتال وطلب منه ان يصف له منازل الجيش ومركزه ، وان يجعل الخليفة دائما على اتصال وعلم بكل التفاصيل التى تجرى فى هذا الميدان

وعلى الجملة ، فان سعدا نزل القادسية ـ التى هى باب فارس كما قال عمر ـ ويبدوا انه كان متوقعا جعل ميدان الحرب في

هذا المكان . اذ نرى الفرس والمسلمين يتحدثون عنه فكأنهما تواعدا القادسية ، فالواقعة بها ولا بد .

وظل سعد بجنده شهرا بالقادسية . لا يأتيه أحد من الفرس ولا يناوشه مع انه على ابواب بلادهم . ولذلك أرسل سرية بقيادة عاصم بن عمرو الى ميسان ، فطلب غنما وبقرا . فلم يقدر عليها ، وتحصن منه أهل ميسان ،فأسر عاصم رجلا بجوار آجمة ، واستدله على الغنم والبقر . فيقال ان الرجل انكر العلم بشيء من ذلك ، ولكن عاصما استطاع ان يعرف مكان هذه المواشى ، فاخذها واستاقها الى المعسكر ،فقسمه سعد بين الناس فاخصبوا أياما .

على انه يقال ان الذى دل عاصما ثور وراء الاجمة التى جلس الفارسى الى جانبها وان هذا الثور نطق قائلا « كذب عدو الله ، وهانحن أولاء » ومع ان هذا مستبعد فى العادة . فانه جائز على الله الذى انطق كل شيء .

ويروى ابن الاثير ان هذه الحادثة بلغت الحجاج فى زمانه ، فكذب الذين رووها ثم انهم آلوا له انهم شهدوها

بانفسهم . فصدقهم : ثم قال لهم : ما كان الناس يقولون فى ذلك؟ قالوا آية تبشير يستدل بها على رضا الله وفتح أرض عدونا. فقال: ما يكون هذا الا والجمع ابرار أتقياء : قالوا والله ما ندرى ما أجنت قلوبهم . فأما ما رأينا فما رأينا قوما قط أزهد فى دنيا منهم ، ولا أشد بغضا لها ، ليس فيهم جبان ولا غال ولا غدار الخ

انتصار المسلمين

ومهما يكن من شىء ، فقد التحم الجيشان ، جيش المسلمين وقائدهم سعد بن أبى وقاص الذي كان يصدر أوامره من أعلى القصر حيث كان به بعض المرض ، وجيش الفرس وقائده رستم الذي كان على اتصال مباشر مع المدائن وامبراطور الفرس حفيد كسرى .

وقد ظلت المعركة دائرة ثلاثة أيام بلياليها واستمرت الى الظهيرة من اليوم الرابع ووقتئذ انهزم الفرس . وخارت قوتهم ، وانسل رستم قائدهم الهمام لينجو فرارا ولكن هلالا ابن علقة احد جنود المسلمين تبعه وقبض عليه ثم قتله ، وملك سريره وصعد عليه ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة .

ويموت رستم وهو بطل الابطال فى دولتهم ، وبطل الفرس في شاهنامة الفردوسى لم يكن للجيش الفارسى وأية قيمة فقد ناوش مناوشات طفيفة ثم ولى الادبار لا يلوى على شىء إذ أن « ارماث وأغـواث وعماس » كانت فاصـلة ، وكانت القادسية قاصمة الظهر(١) .

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر « أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرالراؤن مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك : بل سلبهم إياه ونقله عنهم الى المسلمين ، وتبعهم المسلمون على الانهـار وعلي طفوف الاجام . وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان (وسماهم) ورجال من المسلمين

---

(١) ارماث وأغواث وعماس ايام الحرب الثلاثة ، والقادسية يومها الرابع الذى انتصر فيه المسلمون وهى اسماء امكنة حدثت بها المواقع فى هذا الميدان ، وسميت الموقعة بالمكان الذى فيه تم الظفر فى النهاية .

لانعلمهم . الله بهم عالم . كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل ؛ وهم آساد الناس لايشبههم الاسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهادة . اذ لم يكتب لهم » .

ولفرط شغل عمر بهذه الحملة ، كان يخرج كل يوم يتنسم أخبارها ، حتى جاءه البشير بالفتح على المسلمين . ويقال أن أن الرجل الذى حمل الخبر إلى المدينة التقى بعمر خارجها . فسأله عمر عن الجيش ، فقال «هزم الله العدو» واسرع الرجل براحلته الى المدينة ، ولا يعرف ان الذى يكلمه عمر ، فاخذ عمر يجرى وراءه وهو يقول « ياعبد الله حدثنى »فلا يزيده الرجل عن العبارة السابقة .

ودخل الرجل المدينة ليبشر الخليفة الذى لم يعلم أنه الانسان البسيط الذي يتبعه جريا على الاقدام يسأله عن الجيش ، وإذا بالمسلمين يقابلون عمر خلف البشير ويسلمون عليه بالامارة ؛ فكاد الرجل يذعر ، لانه لايعرف عمر ، فهدأ عمر من روعه بقوله «لاعليك يا أخى » ثم سلم الرجل كتاب

سعد الى عمر ، فعند ذلك حمد الله وسجد له شكرا .

وبعد أن تقبل سعد خضوع المدن الواقعة بجوار الحيرة زحف على بابل حيث كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسى فدارت معركة رائعة بينه وبينهم أسفرت عن هزيمة الفرس وتمزيق شملهم ؛ ففر بعض قوادهم الى المدائن عاصمة الفرس وسار من القواد «الهرمزان» الى الاهواز . كما أتجه الفرزان صوب نهاوند .

ولكن سعد رأي أن الاستيلاء على «كلدة»، لا يتم نهائيا طالما تعسكر جنود الفرس فى المدأن . ولهذا زحف على عاصمة الفرس التى كانت فى موقعها تشبه بغداد بموقعها : إذ تبعد حوالى ١٥ ميلا من مجرى الفرات . وكان الغربى منها يسمى سلوسيا ، والقسم الشرقى يسمي (طاق كسرى)وقد سميت تلك العاصمة بالمدأن لكونها مؤلفة من مدينتين . كذلك كانت قصور الملوك ودور الاشراف تجمع الى الجمال وبهاء الرونق ، الترف والبذخ . وقد تأثر البسطاء بمشاهدة تلك المناظر الخلابة فى مبدأ الامر .

ويقال أنه بعد أن حوصرت المـدائن ردحاً من الزمن اضطرت أن تفتح أبوابهاصاغرة. كما أعقب احتلالها. خضوع المدن الواقعة غربي الدجلة ، وقدصلى سعد صلاةالفتح مع الجند في قصر كسرى أنوشروان (ايوان كسرى)وقدقدم الدهاقين فروض الطاعة إلى سعد ، ونزل القصر الابيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين) .

ومما يذكره الخضرى بك ـ رحمة الله عليه ـ أن سعد جعل أيوان كسرى مسجدا وصلى فيه ، وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك . وتركوها على حالها وأتم سعد الصــــلاة يوم دخول المدائن . لانه أراد المقام بها [1] ..

وهذا الذى يذكره الخضرى غير معروف لدى فقهاء الشريعة ، ولم اطلع عليه فى ابن الاثير ولا غيره من المراجع

---

(١) المحاضرات حـ ١ ص ٢١٤

التى تحت يدى ، ولعله نقله عن بعض مصادر متأخرة بيد أنى أخالفه فى هذا . إذ تواتر ان الاسلام حارب الوثنية فى كل مكان ، وحينما دخل الرسول الكعبة البيت الحرام ، أخذ يزيل الاوثان - وهى لاتعدو أن تكون تماثيل - بعود فى يده ، ويقول (وقل جاء الحق وزهق الباطل) وأمر رجالا من أصحابه بهدم اللات والعزى ، وغيرهما من الاصنام والتماثيل وهؤلاء أئمة الهدى الاربعة أجمعت كلمتهم على عدم أباحة وضع التماثيل والاوثان لافى المساجد ولا فى البيوت ، بل أجمعوا على كراهية الصور .

هذا : بل الرسول عليه السلام يقول « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ويقول عمر لسعد فى وصيته التى سجلناها آنفا : فانظر الامر الذى رأيت رسول الله يلزمه فالزمه : ومن الاشياء التى لزمها الرسول وأمر بها ماحدث به على بن أبى طالب حينما بعث بعض أمرائه على اليمن ان لايدع قبرا مشرفا الا سواه بالارض ولا تمثالا إلا طمسه وأزاله . وقال على أن رسول الله

بعثه من قبل بهذا ، فهو يوصى به إلى أبى الهيجاء الأسدى مبعوثه على اليمن والأدلة على ذلك كثيرة لاتحتاج إلى كبير نظر . وغفر الله للمرحوم الخضرى نقله لهذا الخبر الذى لايعدو في نظرنا أن يكون احدي الفرى على الحق والتاريخ والله المستعان .

وبعد : فاننا وقد أتينا على وصف موجز للقادسية ، لانحب أن نغادر هذا الموضع قبل أن نسوق ذلك الموقف الذى وقفه رستم بطل الجيش الفارسى ، الذى كان راغبا فى مهادنة المسلمين ، بل فى اعتناق الاسلام لولا فظاظة أشراف فارس ، وخشيته من ضياع مركزه فى دولة الأكاسرة يقول ابن الاثير فى ذلك :

فلما وصل رستم القادسية ، وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى اعتموا من كثرتهم ، والمسلمون ممسكون عنهم . وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا ، منها فيل سابور الأبيض . وكانت الفيلة تألفه فجعل فى القلب ثمانية عشر فيلا ، وفى المجنبتين خمسة عشر

فيلا ، فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة ؛ وأرسل إلى زهره فواقفه فأراده على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك . بل يقول له : كنتم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم ، ويخبره عن صنيعهم مع العرب. فقال له زهرة : ليس أمرنا أمر اولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الاخرة ، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا ، فدعانا الى ربه فأجبناه ، فقال لرسوله : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فانا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز . فقال له رستم : ما هو . قال : أما عموده الذى لايصلح إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والاقرار بما جاء به من عند الله قال : ما أحسن هذا ، وأى شىء أيضا . قال : وإخراج العباد

من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : حسن . وأى شىء أيضا . قال والناس بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم . قال ما أحسن هذا . ثم قال رستم : أرأيت إن أجبت إلى هذا ومعى قومى . كيف يكون أمركم ، أترجعون : قال : أى والله ثم لانقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة . قال : صدقتنى والله . أما ان أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة . وكانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم ، تعدوا طورهم ، وعادوا أشرفهم ، فقال زهرة : نحن خير الناس للناس . فلا نستطيع ان نكون كما تقولون ، نطيع الله فى السفلة . ولا يضرنا من عصى الله فينا . فانصرف عنه رستم ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا ، فأنفوا . فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ، أخزى الله أخرعنا وأجبننا (١) .

على أن رستم لم يكتف بهذا ، بل تحت عاطفة السلام التى استولت على مشاعره ، واصل بحوثه ليتأكد من هدف العرب

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠

الذى يهدفون اليه فى حربهم هذه . فأرسل إلى سعد أن ابعث الينا رجلا نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة ليرسلهم ، فقيل له إن الخير أن ترسل رجلا واحدا ، فبعث إلى رستم بربعى ابن عامر ، فسار هذا حتى وَصل اليهم ، فجمع رستم عظماء فارس واستقبلوا رسول سعد اليهم ، فدخل الرسول حاملا سلاحه ، بعد أن شق وسادتين ربط بهما فرسه ، فأظهر الفرس عدم المبالاة بذلك ولكنهم طلبوا منه أن يضع سلاحه ، فرفض ، ولم يكتف بهذا بل أخذ يتوكأ على رمحه ويمزق البسط والنمارق التى زين بها الفرس غرفة القائد العام ، فلما اقترب من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط فطلب منه أن يجلس على النمارق فرفض قائلا : إنا لا نستحب الجلوس على زينتكم هذه (١) . ثم كانت هذه المحاورة الآتية بينه وبين رستم :

رستم : ماجاء بكم ؟

---

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٣٠

ربعى: الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام، فارسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم اليه، فمن قبله قبلنا منه ررجعنا عنه، وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر

رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم ان تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه، وتنظروا.

ربعى: نعم، كم أحب اليكم، أيوما أو يومين ؟

رستم: بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا

ربعى: إن مما سن لنا رسول الله (صلعم) وعمل به أئمتنا أن لانمكن الأعداء أكثر من ثلاث؛ فنحن مترددون عنكم ثلاثا، فانظر فى أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. إما الاسلام، وندعك وأرضك. أو الجزية فنقبل ونكف عنك، وإن احتجت الينا نصرناك أو المنابذة فى اليوم الرابع، ولسنا نبدأك فيما بيننا وبين اليوم الرابع. إلا أن تبدأ. أنا كفيل

بذلك عند أصحابي .

رستم . أسيدهم أنت ؟

ربعي . لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم [١]

وبعد أن انتهت تلك المحاورة بين رستم وربعي ، قام رستم فخلا برؤساء قومه فقال ما ترون . هل رأيتم كلاما قط أغرب وأوضح من كلام هذا الرجل . فقالوا معاذالله أن نميل إلى دين هذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال . ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة إن العرب تستخف باللباس والمأكل ، وتصون الأحساب ليسوا مثلكم .

فلما كان من الغد ، أرسل رستم إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث اليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل في نحو من ذلك الزى ، ولم ينزل عن فرسه ، ووقف على

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢١

رستم راكبا ، فقال له رستم انزل . فقال حذيفة . لا أفعل فقال ما جاء بك ولم يجيء الأول قال له ان أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشده والرخاء ، وهذة نوبتى . فقال . ما جاء بكم ، فأجابه مثل الاول ، فقال رستم المواعدة الى يوم ما قال نعم ثلاثا من أمس . فرده ، قال . لأصحابه ويحكم أما ترون ما أرى ، جاءنا الأول الأمس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظمه وأقام فرسه على زبرجنا وربطه به ، وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا وهو فى يمين الطائر يقوم على أرضنا دوننا .

ويواصل رستم ما اعتزمه من الوقوف على أغراض هؤلاء الفاتحين ، والمبادىء التى اعتنقوها فغيرت أخلاقهم وبدلت سياستهم . فبعد برهة وجيزة من صرف حذيفة ، راسل سعد بن أبي وقاص ليبعث اليه برجل آخر يفاوضه ويحادثه .

وفى اليوم التالى لسفارة حذيفة أرسل سعد المغيرة ابن شعبة ليحادث رستم ويفاوضه فأقبل المغيرة الى الفرس ،

وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم مفروشة على مسافة طويلة . بحيث لايوصل الى رستم الا بالمشى مسافة فأقبل المغيرة حتى جلس على السرير معرستم فوفبوا عليه وأنزلوه وأمسكوا بتلاليبه . فقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم . انا معشر العرب لايستعبد بعضنا بعضا ، الا أن يكون محاربا لصاحبه . فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . فكان أحسن من الذى صنعتم ، أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى . واليوم علمت أن أمركم مضمحل وانكم مغلوبون ، وأن ملكا لايقوم على هذه السيره ولا على هذه العقول . فقالت جماهير الفرس صدق والله العربى . وقالت الدهاقين . والله لقد رمى بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اولينا ما كان احقهم حين كانوا يصغرون امر هذه الامة (يقصد العرب)

ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم امرهم وقال . لم نزل

متمكنين فى البلاد ظاهرين على الأعداء ، أشرافا فى الامم فيس لأحد مثل عزتنا وسلطاننا ، ننصر عليهم ولا ينصرون علينا إلا اليوم ، واليومين ، والشهر للذنوب . فاذا انتقم الله منا ورضى علينا رد لنا الكرة على عدونا ، ولم يكن فى الامم أذلة أصغر عندنا أمرا منكم ، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة ، لا نراكم شيئا ، وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشىء من التمر والشعير ، ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم . فأنا آمر لاميركم بكسوة وبغل والف درهم ، وأمر لكل منكم بوقر (حمل) تمر وتنصرفون عنا ، فانى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم . وفى هذا الكلام من رستم كثير من الكهانة والخداع ، فانه قد ناقض اعتقاده في مقدرة هؤلاء العرب ، ونيتهم فى هذه المرة أن يفتحوها أو تعتنق مبادئهم وليسوا كلاب مأكل كما زعم وليسوا هم الذين تردهم التمره واللقمة ، ويرضيهم اللباس ، وإن طرز بالجواهر . لان هذا الزمن أدبر إلى غير رجعة ، وقد محيت رموزه من شبه

الجزيرة منذ دانت لمبادىء الاسلام ، وعملت بتعاليم رسولها الكريم فى الدين والسياسة « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم » .

ولذلك وثب المغيرة وثبة المسلم العربى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال . إن الله خالق كل شىء ورازقه ، فمن صنع شيئا فانما هو بصنعه . وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك ، فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف . فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا اليها ، ولو شكرتم ما آتاكم الله . لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل الكفر لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلبا من الله رحمة ورأفة علينا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون اليه أو كنتم تعرفوننا به ، ان الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا :

ثم ذكر مثل ما ذكر صاحباه من الاسلام والجزية والقتال وقال ان عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم ، فقالوا لا صبر لنا عنه

فقال رستم . اذن تموتون دونها ، فقال المغيرة . يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم يدخل النار ، ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم .

فاستشاط رستم غضبا ثم حلف بالشمس أن لا يرتفع الصبح غدا حتى يقتل جميع العرب.

بيد أن رستم كما أسلفنا كان مضطرب النفس من هؤلاء العرب ، يخشى من حربهم ولقائهم ، حتى لقد قال لاخيه فى بعض المواقف انى لاقاد الى هذا الوجه ، وليس لى رغبة فى حرب هؤلاء القوم ، بل أنه كثيرا ما نصح اشراف فارس أن يصالحوا العرب ، وعبثا حاول اقناع قومه . بيد أنه حينما أيقن بأن قومه مصممون على الحرب لم يشأ أن يخسر قومه ، أو يتخلى عن وطنه ، ولذلك قلب للعرب ظهر المجن وصمم على لقائهم وليكن ما يكون .

وعلى الجملة ، فان هذا الرجل لقى حتفه على يد أحد الجنود

المسلمين وانتهت هذه المقارعات باللسان والسنان بهزيمة منكرة لدولة الفرس وانتصار عظيم للدولة الاسلامية. حسبما أبنا آنفا يقول سيد امير على. والآن وقد أصبح سعد حاكما مدنيا عسكريا على العراق ومن ضمنه الجزيرة فقد اتخذ المدائن مقرا لحكمه، ونزل القصر الملكى كما خصص أجنحته للدوائر الرسمية وكان يصل بالمسلمين صلاة الجمعة فى الايوان الكبير، ومن هذا القصر طفق يدير شئون الولاية.

ولكن ما انقضت فترة وجيزة حتى رأى المسلمون أنفسهم مضطرين الى امتشاق الحسام. اذ أن ملك الفرس المقيم فى حلوان أنفذ جيشا كثيفا لاسترداد المدائن فالتقى الفريقان فى جلولاء على بعد خمسين ميلا من العاصمة فى شماليها الشرقى. فدارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الفرس وانتصار العرب [1]

---

(١) ص ٢٨ من تاريخ العرب

وكانت الجيوش بعد القادسية قد تفرقت فى صياصى الجبال حول الدجلة ، وهرب الملك يزدجرد إلى حلوان ، وجاءت القبائل المتوطنة فى حوض الدجلة تطلب الدخول فى طاعة المسلمين على الذمة والجزية .

ولذلك أرسل سعد بعض قواده واستولى على حلوان ففر ملك الفرس وذهب إلى الرى ، وعقد العرب معاهدة صلح مع الفرس بعد هزيمة هؤلاء في جلولاء قرب حلوان ، وطردهم يزدجرد من حلوان كما سبق ، كما فتح العرب فى هذه الاثناء مرفأ الابله على شط العرب .

وفى سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) أنشئت مدينتان جديدتان فى العراق . البصرة على شط العرب ، وقد نزلها عرب الشمال وكونوا غالبية سكانها . والكوفة ، وقد شيدت على شاطىء الفرات الغربى على ثلاثة أميال من جنوبى الحيرة ، وقد استوطنها اليمانيون من عرب الجنوب ، وحلت محل المدائن التى هجرها العرب لسوء مناخها . ومما يذكر أن هاتين المدينتين شيدتا على أساس منظم فخططت فيهما

الشوارع والميادين العامة ، وبنى فى وسط كل منهما مسجد جامع ، وسوق فسيحة ، وحدائق غناء .

وقد ظلت الحياة فى العراق هادئة ردحا من الزمن ، تفرغوا فيه لاصلاح تلك الولاية الجديدة ، فمسحوا أرضها ، وأدخلوا نظاما جديدا فى تقدير الضرائب فيه تخفيف عن كاهل الفلاحين ، كما أصدر الخليفة أمراً بمنع بيع الاراضى من أربابها أهل السواد ، وأمر بأن يقرضوا مبالغ من المال يستعينون بها على إصلاح أراضيهم كذلك أمر الخليفة بمصادرة الضياع الملكية ، وغابات الصيد وأملاك الامراء ، وكبار الاغنياء الهاربين ، والاوقاف المحبوسة على معابد النار التى هجرها الكهان ووضعها جميعاً تحت إدارة وكلاء جاءوا خصيصاً من المدينة .

وكان الجنود قد طلبوا أن توزع عليهم الاراضى التى فتحوها ، ولكن أمير المؤمنين رفض هذا الطلب رفضاً باتا ، واكتفى بتوزيع جزء من ايراداتها على العرب الفاتحين (١)

---

(١) انظر سيد أمير على ص ٢٩ .

ولـكن هذا الهدوء لم يكن إلا فترة تجهز واستعداد من جانب الفرس طالما بينهم امبراطورهم ينفخ فيهم بغض العرب ، والاستعداد لاسترداد ما أخذوه من الفرس .

وفى أواخر سنة ١٧ هـ قام العلاء بن الحضرمى والى البحرين بحملة ضد اصطخر ، ولم توفق هذه الحملة التى قام بها العلاء إذ أن الفرس تقهقروا أمامها ليخدعوها ، حتى عبرت البحر بعد أن سدوا عليهم منافذ النجاة وعبثا حاول العرب أن يفلتوا من هذا الفخ الفارسى الذى سببه حب العلاء للفخر ومنافسة قائد القادسية .

ولما بلغت الاخبار عمر سارع بعزل العلاء ، وأرسل عتبة ابن غزوان أمير الابله ، أن يعمل على تخليص الجيش الاسلامى وقد أرسل عتبه حوالى اثنى عشر الف جندي ، واستطاع أن ينقذ المسلمين من مأزقهم الذى حشرهم فيه أمير البحرين .

كانت حملة العلاء الفاشلة ، سببا فى ظن الفرس أن المسلمين ، شرعوا يتقهقرون عن بلادهم ، وأن الذين

هزموا جيش العلاء من الممكن أن يخرجوا العرب الباقين من أراضى الامبراطورية .

ثم أن عمر كان قد أصدر أوامر مشددة بأن لا يتقدم المسلمون شبرا فى أرض الفرس ، زيادة عن الاماكن التى استولوا عليها .

ولهذا أخذ يزدجرد يتجهز فى الرى ، ويعد الجيوش لطرد المسلمين ، فكتب سعد أمير العراق إلى عمر بذلك فتردد عمر أول الأمر ، فأوفد اليه سعد بعض رؤساء الفرق ليقنعوا الخليفة ، بوجوب ازالة رمز الدولة الفارسية الذى لايكف عن مناوأة المسلمين ، ومن كلام بعض أعضاء الوفد لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين . إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافى أيدينا . وان ملك الفرس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئا بعد شىء الا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم

حتى تأذن لنا فى الانسياح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته . فهناك ينقطع رجاء أهل فارس . وكان هذا المتكلم الاحنف بن قيس أمير الحكم العالية فى العراق . وطلب عمر الهرمزان الذى أسر آنفا ، واعتنق الاسلام وعاش فى المدينة ، أن يبدى رأيه فى هذه المسألة فأيد الهرمزان كلام الأحنف ؛ وبذلك أمر عمر بالانسياح فى بلاد الفرس . ففى سنة ١٧ هـ أمر أبا موسى الاشعري أن يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة حتى يأتيه أمره . وبعث بفرق متعددة الى بلاد فارس . فأرسل الأحنف بن قيس أمير فرقة خراسان ، وأسند الى مجاشع ابن مسعود قيادة جيش أردشير وسابور (مدينتين بفارس) وعقد لعثمان بن أبي العاص لواء اصطخر .

وكذلك أرسل فرقا الى كرمان بقيادة سهيل بن عدى والى سجستان بقيادة عاصم بن عمرو ، ومكران للحكم ابن عمير التغلبي ونسا ودارا بجرد لسارية بن زنيم الكنعانى وبعد أن فصلت الفرق من العراق ، أرسل عمر على

أثرها امدادات كثيرة ، إذ كان هذه المرة عازماً عزما أكيداً على ازالة ملك الفرس ، وضم بلادهم الى دولة المسلمين نهائيا .

***

أما الفرس . فانهم عندما علموا بهذا شرعوا يعدون العدة ، فأعلن يزدجرد التعبئة العامة فى جميع بلاد الامبراطورية ، فجاءته الجيوش والمطوعة من حدود الصين ، والمحيط الهندى ومن سائر أنحاء الدولة ، فبلغ جيشه فيما يقال حوالى ١٥٠٫٠٠٠ مائة وخمسين الف مقاتل ، بينما جيش المسلمين لايصل الى ثلاثين الفا .

ولذلك لما وصلت الانباء الى الخليفة داخله القلق حتى فكر فى قيادة الجيش بنفسه لولا رأى مجلس الشورى بأن يبقى الخليفة فى العاصمة ، فأسند عمر قيادة الجيش العامة الى النعمان بن مقرن أمير خوزستان وفاتحها .

وفى نهاوند التقى المسلمون بالفرس ، وكانت موقعة فاصلة انهزم فيها الفرس ، وقتل منهم حوالى ثمانين الفا ، بينما

كانت خسارة المسلمين قليلة إذا استثنينا القائد العام الذى خر صريعاً فى ميدان القتال .

قررت موقعـة نهاوند في سنة ١٨ هـ مصير آسيا ، وسميت بفتح الفتوح وفر يزدجرد ضارباً فى الافاق حتى استقر به المطاف أخيراً وبعد مدة فى مرو ثم انتهى به الحال الى أن فتك به أحد أتباعه فى قرية قريبة من تركستان ، فى عهد عثمان الخليفة الثالث .

وباندحار هذا الجيش ، وبموت يزدجرد فيما بعد عنت بلاد الفرس لسلطان المسلمين .

وفى الحال اتخذ الخليفة — كما اتخذ فى الجزيرة من قبل — تدابير فعالة ، لاقرار الفلاحين على حالتهم ، وانقاذهم من ربقة العبودية وعسف الدهاقين (كبار الملاك) ، وأصلح نظام الضرائب وأمر بترميم الجداول وشق الترع ، كما أقر الملاك على أراضيهم على أن يدفعـوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وضمن حرية العبادة وحظر على المسلـــــمين التعرض لدين أهل البلاد الاصليين وقد أطلق المسلمون على

الذين ظلوا على دينهم القديم « أهل الذمة » أو الذميين.

على أن الجزية — وهى الميزة الوحدة — كانت مما أغرى كثيرا من أهل البلاد لاعتناق الاسلام، ولم تكن هذه الزيادة الطفيفة الالقاء الاعفاء من الانخراط فى سلك الجندية، وحماية من يدفعها من أى اعتداء يقع عليه. ولذلك أخذ الناس يدخلون فى دين الاسلام أفواجا طوعا لا كرها، على عكس ماتفعله الدول الحديثة من الاساليب لتغيير عقائد الناس الذين يدخلون في سلطانهم. وأقرب الدول الينا الآن فرنسا وإيطاليا وما اتبعتاه فى المغرب الاسلامى منذ عهد قريب.

على أن السياسة الاسلامية قد أمرت بالمؤاخاة بين المسلمين من أى جنس ولون وبين غيرهم ممن اعتنق الاسلام، وسمى بالموالى تمييزا لهم عن العرب الفاتحين، وهو اصطلاح أملته التقاليد أكثر من المبادىء، لأن الاسلام ليس دين العرب وحدهم بل هو دين الانسانية فى أعلى مثلها، وأسمى غاياتها. وأجمل شرائعها.

ولـكن على الرغم من ذلك ، ومن اتباع الحكام العرب أتم قوانين العـدل والمساواة ، والصالح العام ، فان الـكهنة لم يكفوا عن اقلاق مضاجع الدولة الفتية . أذ طالما حرضوا السـكان الذميين على شق عصا الطاعة على المسلمين ، وكانت الدولة أحيانا ربما لجأت الى ضروب من القسوة تحت تأثير الظروف الطارئة بيـد أن السياسـة الرشيدة فى عهد الاربعة كانت خالية من هذا النوع من التنكيل بأهل الذمة ، ولـكن قد يكون حدث شىء من ذلك فى عهـد الملـكية الأموية ، ومن بعض ولاتها فحسب ، فلما كانت العباسية عاودت سياسة اللين والرحمة التى سار عليها خلفاء الاسلام فى أول الأمر ، مع فارق بسيط أملاه التطور ، وتغير الأيام .

وعلى كل حال : فقد استطاع عمر بعد أن ثبت أقدام المسلمين فى البلاد الفارسية ، وأزال آخر رمز لسيادتها ، أن ينظم شئونها وأن يرفع الظلم عن أهالى البلاد ، مما خلده التاريخ بمداد الحمد والثناء ، وبجعل جميع الأهالى يقبـلون

على اعتناق الدين الجديد ، ويتفانون في سبيل نصرته،ونشر ثقافته وتعاليمه حتى كان الموالى من الفرس من أعظم العوامل فى النهضة الاسلاميـة التى أنارت للعالم سبل الحياة فى جميع مناحيها .

وهذا من غير شك ، مما يعزز أن الاسلام ليس دين العرب بل دين العالم ، وأن صلاحيته فى السياسة، والادارة الى جانب التشريع والعبادة . قد جربت ونجحت أتم نجاح مع شتى الأمم والشعوب، والتاريخ خير شهيد وحكم ، فليقرأه من يشاء وليحكم بالحق ان أراده .

أما مانشهده اليوم من هذه الشراذم الهزيلة من رفع رؤوسها وعقائرها بالاشادة بفقه علماء الفرنج وانكبابهم على دراسة مؤلفاتهم مع عزوفهم عن معين الاسلام الصافي وزعمهم أن للدين مدرسة ، وللمدنية معاهد وغير ذلك مما يشهده المسلم وهو يتقطع أسى على أبناء الاسلام الذين يدعون البنوة له وهم من أعق الناس وشرهم عليه ، فان هذه العقائر ، وتلك الصيحات . ماأملاها الا ضعف النفوس .

والمرض المتأصل فى قلوب هؤلاء فاللهم صبراً وغفراً . فقد بلغ السيل الزبى واتسع الخرق ولاقوة إلا بك يارب العالمين

حروب عمر مع الروم

وننتقـــل بكم الى صفحة أخرى من سجل الجهاد الاسلامى الذي سطره الفاروق . فى الميدان الذي أسميناه « الغربى » مع الروم فى الشام وفلسطين وهو الميدان الذى حالف النصر فيه المسلمين حتى ضموا الى دولتهم بر الشام وفلسطين ، ثم الأردن . والعريش ووادى النيـل (مصر) ثم منه مدوا فتوحاتهم الى المغرب الاقصى فاسبانيا . وفتحوا جزر البحر الأبيض وجعلوه بحيرة اسلاميـة وأصبحت مآذن التوحيد . وشهادة الاسلام . ورسالة محمد ينادى بها فى البر والبحر من حدود الصين الى جنوب افريقية ومن الهند الى المحيط الاطلانطى . وذلك فى العصور التالية لعمر وسنحاول أن نوجز لـكم صورة عن حروب الميدان الآنف فى عهد عمر . فاليكم ذلك :

في جمادى الأولى من سنة ١٣ هـ (٣١ يوليه سنة ٦٣٤ م) توفي أبو بكر وخلفه عمر الفاروق ، وقائد الميدان الغربي خالد بن الوليد الذى ، انتقل من الميدان الشرقى وتسلم القيادة فى حرب الروم بأمر الخليفة أبي بكر وكان تحت امرته من قواد الفرق ، أبو عبيدة بن الجراح ، ثم عمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان يساعده أخوه معاوية ابن أبي سفيان ، ثم شرحبيل بن حسنة .

على أن وفاة أبى بكر لم تحدث تغييراً يذكر في السياسة العامة فان عمر كان مطلعاً على جميع شئون الدولة فى عهده ، وكان موافقا على جميع الأمور التى اتبعها سلفه ، فيما عدا قيادة خالد بن الوليد ، فان عمر كان له فيها رأى أبداه علنا أمام أبي بكر ، حتى أن أبا بكر لما وصى عمر فى أخريات حياته ، لم يلزمه بابقاء خالد اميراً . بل انه أمره بأن يرد جيش خالد إلى الميدان الشرقى . ولم يعرج على ذكر خالد بحرف من كلمة . مراعاة لشعور عمر الذى كان يميل أبو بكر إلى رأيه — فى هذه المسألة — لولا أنه كان لا يريد

أن يخطئ قائد جند أمام مرؤوسيه . كما أنه كان ينصح الأمراء بما لايجعلهم ينفرون منه . وهى فى رأينا السياسة لا ما كان يرى عمر .

ولذلك . فانه ما كاد عمر يبايع له . حتى ارسل إلى أبى عبيدة كتابا بتوليته القيادة العامة . وعزل خالد . وعدم توليته قيادة أية فرقة ولو صغرت .

ولما وصل الرسول بالكتاب وجدالمعركة مستعرة بين الروم وبين المسلمين . فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبى عبيدة ولم يذعه لئلا تضعف به قوة الجنود . ثم وضع الكتاب فى كنانته حتى انتهت الموقعة . بذلك النصر . فسلم الكتاب إلى أبى عبيدة . وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد فى ذلك اليوم قوله : الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت . وكان أحب إلى من عمر . والحمد الله الذى ولى عمر وكان أبغض إلى من أبى بكر . ثم ألزمنى حبه[1] .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية جـ ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤

تولى أمارة الجيش أبو عبيدة بن الجراح . بعد انتصار المسلمين فى موقعة « اليرموك » مباشرة . ولم يشأ أن يذل نفس خالد فيجعله جنديا عاديا، بل انه قدر فيه رئيسه السابق . وواضع خطة الانتصار في أكبر موقعة خاضها المسلمون حتى اليوم . بل انه جعله على مقدمته وبعد أن انهت الموقعة « اليرموك » ودفن القتلى ووزعت الغنائم والاسلاب . زحف أبو عبيدة إلى بيسان حيث تجمعت فلول الجيش البيزنطى لصد المسلمين عن التقدم نحو الشمال بيد أن خالدا أفسد عليهم خططهم وأرغمهم على مغادرة بيسان حيث تحصنوا بمكان اسمه « الفحل » فاتبعهم خالد وحصرهم واستطاع أن يرغمهم على التسليم بعد فترة وجيزة

وفى ذى القعدة من سنة ١٣ هـ سار خالد نحو دمشق لحصارها . وعلى مسافة قليلة منها عسكر انتظارا لأوامر الخلافة .

وفى شهر المحرم من سنة ١٤ هـ وصل خالد الى دمشق وألقى عليها الحصار وكان يعاونه أبو عبيدة وعمرو بن العاص

ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ، وكل منهم على ناحية من أسوار دمشق المنيعة وقد وصلت الأنباء إلى هرقل ، فأرسل فرقة الفرسان لانجادها فصدتها خيول المسلمين التي عند حمص ، وكان أبو عبيدة قد فرق جيشه إلى فرق وعين لها مراكز تمتد من فحل إلى حمص شمالا وفيما بين ذلك الجنود موزعة على مراكز وكمائن — فما كادت جيوش هرقل تغادر حمص ، حتى أوقع بها جند المسلمين ، وهزموها شر هزيمة ، فولت لا تلوى على شيء .

ولما اشتد الحصار على أهل دمشق ، طلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة والقواد الآخرون ، عدا خالدا فانه كان قد سبقهم إلى دخول دمشق عنوة ، فقتل وأسر وغنم ، ولذلك كان فتح الناحية التي دخل منها خالد عنوة ، وبقية نواحي دمشق فتحت صلحا .

وبعد فتح دمشق ، صرف فرقة خالد إلى العراق ، وأمر عليهم هاشم بن عتبة ، واستبقى خالداً معه وأمره على مقدمة جنده ثم استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق ،

الذى مد فتوحه إلى سواحل دمشق ، فاستطاع أن يضم إلى ولايته مدن صيدا وعرقة ، وجبيل ، وبيروت ، وكان على مقدمة يزيد أخوه معاوية[١]

كذلك أرسل أبو عبيدة ، شرحبيل ومن معه إلى بيسان ، فضمها صلحاً ، كما ضم بعض قواد أبى عبيدة مدينة « طبرية » ونزل أهلها على حكم المسلمين فجعلوهم كأهل « دمشق » .

وفيما كان أبو عبيدة يستولى على القسم الأكبر من سوريا الشمالية كان عمرو بن العاص ، يحرز فى فلسطين النصر تلو النصر أما الحاكم الرومانى المسمى « ارطبون » فكان قد حشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها ، كما عزز ، فى الوقت نفسه حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل ميدان القتال بنفسه فى أجنادين إحدى القرى الواقعة شرقى القدس (إيليا) الواقعة بين الرملة وبين بيت جبرين من أعمال فلسطين[٢]

---

(١) ابن الأثير والخضرى ، ومذكرة الدكتور زياده
(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٦

ولكن لم يمض قليل وقت حتى زحف قواد العرب إليهم، وكان القتال الذى حمى وطيسه حتى كاد يفوق اليرموك ، وقد بذل عمرو جهداً جباراً فى هذه المعركة ، إذ أحكم رسم الخطط وسبر غور عبقريته الشهيرة فى الدهاء والخداع ، ضد عدو شديد المراس حتى استطاع أن يظفر بذلك النصر، الذى قضى على الدولة البيزنطية إلى الأبد فى الشرق الأدنى ، وشواطئ آسيا الغربية على بحر الروم (البحر الأبيض) .

ومما يذكر عن عمرو ، أنه بعد أن عسكر بجيشه قبالة أرطبون قائد الروم ، وطالت المدة ، ولم يستطع ان يستدرج الروم إلى القتال ، سار عمرو إلى أرطبون فى هيئة رسول لعمرو ، فدخل عليه ، وأبلغه ما أراد وسمع كلامه ، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، فيقال أن أرطبون فطن به وقال : لا شك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم أمر إنسانا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مر به ، ففطن عمرو لفعله . فقال له : قد سمعت منى وسمعت منك ، وقد

وقع قولك منى موقعاً ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر ابن الخطاب ، إلى هـذا الوالى لتكاتفه ويشهدنا أموره ، فارجع فآتيك بهم الآن ، فان رأوا الذى عرضت على الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم ، وكنت على رأس أمرك : فقال أرطبون نعم ، ورد الرجل الذى أمر بقتله: وقال لعمرو انطلق وجئ بأصحابك ، فخرج عمرو من عنده ، ورأى أن لا يعود إلى مثلها وعلم الرومى أنها خدعة اختدعه بها ، فقال : خدعنى الرجل . هذا أدهى الخلق [1]

ويقال أن هذه الحادثة بلغت عمر بن الخطاب . فقال : لله در عمرو :

وقد كان هذا الأسلوب من عمرو فى حروبه ، من أهم العوامل التى أحرز بها النصر . إذا استطاع فى مثل هـذه المغامرة الناجحة أن يعلم رأى قائد الروم ، وأن يشهد بنفسه العدد والعدد التى ستقابل جنده بعد قليل .

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٤٧ .

وكان ذلك النصر فى سنة ١٥ هـ فى أصح الروايات .

وكان من نتائج هذا الانتصار فى اجنادين ، تسليم عدة مدن مهمة فى دولة الروم ، مثل نابلس ويافا وعسقلان وغزة والرملة وعكا كما أسلفنا .

وكان فى القدس (ايليا) حامية قوية قاومت مدة طويلة ثم أعلن بطريقها رغبته فى الصلح ، على أن يسلم المدينة للخليفة نفسه : وعندئذ سار أمير المؤمنين فى غير ماتردد إلى الشام لا يصحبه غير خادم واحد ، وكان فى استقباله فى الجابية وفد من أهل دمشق ، فأعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم على أن يدفعوا الجزية ، ومن ثم شخص مع الوفد إلى القدس. فاستقبله على أبوابها البطريق «صفرونيوس» فدخلها الاثنان وهما يتحادثان ، ويقال : أن الخليفة امتنع عن الصلاة فى كنيسة القيامة التى اتفق وجوده فيها وقت الصلاة ، فصلى على إحدى درجاتها . وقد قال الخليفة فى ذلك: أنه لو صلى فى فنائها لنقض المسلمون العهد فى المستقبل بحجة الاقتداء به فى الصلاة :

ثم منح وفد الرملة شروطاً كالتى منحها لوفد القدس أما اليهود الذين كانوا قد ساعدوا المسلمين على الفتح . فقد أقرهم على أملاكهم وأعفاهم من الضرائب .

وعندما شقت القبائل الأرمنية والكردية عصا الطاعة أرسل إليهم الخليفة قوة كبيرة ، فأنزلت بهم أشد أنواع العقاب أما هرقل فانه ظفر بعقد اتفاق مع المدن الكبرى التى لم تكن قد أذعنت بعد للتسليم للعرب . ولكن الخليفة عندما علم بهذا أنفذ إليهم جيشاً كبيراً لقتالهم .

وفى هذه الأثناء أخذ هرقل يحاول المحاولة الاخيرة فى معركة حاسمة ضد العرب .

ولذلك أعلن التعبئة العامة فى جميع أقاليم الامبراطورية وقد جاءته الجيوش تترى من مصر والاناضول ، وارمينية وليبيا وغيرها ، وبلغ ماجيشه من المقاتلة حوالى ١٦٠ مائة وستين الف مقاتل بينما جنود الاسلام لا يبلغون الاربعين ألفاً تنقصهم أسلحة الروم ، واستعداداتهم ، ولكن لهم قلوباً ، تكن فيها إيماناً قوياً ، وثقة بالنصر والظفر .

ولهـذا فما كاد الروم يغيرون على أرض فلسطين ، ويستولون على بعض مدنها وقراها حتى وصلت الانباء إلى القيادة الاسلامية فى الشام ، فأصدرت أمراً إلى جميع الفرق بالاستعداد للقاء العدو .

ونشب القتال فى فلسطين ، وانتصر العرب على الروم وأخرجوهم نهائياً من أرض الشام ، وأرض المعاد ، ويئس هرقل نهائيا من استرداد هـذه البلاد ، ولذلك عزم على الرحيل من أنطاكية التى أصبح العرب قاب قوسين منها . إلا أنه أراد أن يودع كبار المسيحية وأعوانه الوداع الاخير فجمع كبار قومه فى حفل حافل فى كنيسة أنطاكية يستشيرهم فيما يعمل — ولـكنه فى هذا الوقت ، كان كأن عقله قد فلج

ثم عرض للبحث فى أمر هؤلاء العرب الذين أغاروا على بلاد الامبراطورية ، ولم ينحسر مدهم بعد ، مما جعله يوقن بأن المسألة ليست اغارة كأخواتها السابقة حين كان هؤلاء الاعراب ، يغيرون فيردهم بحفنة من فتات المائدة ، أو دريهمات من ضرب الدولة الرومانية الـكبرى بل هم فى

هـذه المرة غزاة فاتحون ، مصممون على نشر مبادىء جديدة لم يعهدها الروم من قبل .

فهذه ألقاب جديدة تغدق على قواد الحملة ، وهؤلاء صنف جديد من العرب لم يعرف من قبل ، وهـذه فنون عسكرية لم تسبر الدولة العظمى غورها بعد .

ليس القوم طلاب دنيا فضلا عن زاد أو ملبس ، ولا هم دعاة جاه ونفوذ ، فلباسهم الخرق الممزقه ، بل انهم ليفخرون بهذا الطراز من اللباس ويتشدقون بهذا اللون من الحيـاة الرثة الوضيعة . إنّ التغلب على هؤلاء ضرب من المستحيل بل هو المستحيل بعينه .

لقد تواطأ رسلهم جميعاً على كلمات ثلاث ، لم يشذ واحد عنها ، ولم يحور فيها ، ولم يبدِّل من صرامتها .

كلهم يقول : الاسلام أو الجزية أو المناجزة : أى بلاء ذلك الذى نزل بالامبراطورية ، ان ذكر القوم : مجرد ذكر أسمائهم (سيف الله) أمين الأمة — الفاروق — الصديق ليلقى الرعب فى أشجع الروم قلبا ، فما بالك بجند

لا جامعة بينهم ، ولا هدف لهم . جند الامبراطورية كلهم مرتزقة مأجورون ، مايكاد الواحد منهم يعرض عليه الدفاع عن شرفها حتى يساوم : بكم قرش هذا الدفاع ، وإذا انتصر فكم ديناراً يمنح . تلك غاية الجيش ، وهدف الضباط .

ما أمر الحياة ، فى هذه البلاد ، فلنغادرها ، ولنحاول تحصين مصر ، فلعل فيها سلوى لنا من فقد الشام وأرض المعاد .

* * *

ماتخال هرقل الا وقد دار بخلده كل هذا بيد أن شيخاً كبيراً لم يدعه يطيل التفكير . بل قام وأخذ يبدى أسفه على الموقف الذى وصل إليه الأمبراطور ، والمسيحية بأسرها ، وتقصيرها عند حماية الصليب فى أرض الصليب . قال ذلك الشيخ أن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ، ولما يرتكبون من الربا والقسوة . وكان عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم .

كان قول ذلك الشيخ فصل الخطاب . فأحس الامبراطور

بضعف الجسم ووهن العقل ورأى الحظ يتعثر به وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لاغناء فيه. فرحل عنها إلى القسطنطينية في البحر فى شهر سبتمبر سنه ٦٣٦ م وقال إذا هو راحل وداعا يا بلاد الشام ، وداعا ما أطول أمده .

ويقال إن هرقل استطاع أيضا أن يحمل معه الصليب الأعظم وبقية مخلفات المسيحيه ، حيث وصل إلى خاقيدونية حيث كان يقيم في قصره إلى جوارها ؛ ثم سار بعد فتره إلى بيزنطه حيت أودع هذه المقدسات النصرانية كنيسة ابا صوفيا وبذلك ختمت صفحة الروم فى الشام إلى الابد .

ولكن هل يقنع العرب بالشام وأرض المعاد ، وهل يظلون هدفا لهؤلاء الروم المتاخمين فى وادى النيل (مصر) ذلك ماسنتحدث عنه فيما يلى .

فتح مصر

بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس ، سار عمر بن الخطاب الخليفه عمر بن العاص القائد وذاهبا نحو الشمال ؛ وقد أنفذ الخليفة عمرو بن العاص

ممدا للجيش المحاصر لقيصرية .

أما الخليفة فقد أقام فى دمشق ولعل عمرا قد أفضى اليه برأيه فى فتح مصر منذ كانا فى بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت ، عاد عمرو الى عرض رأيه . وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى ، وما كان عليه فتحها من السهولة وقال أنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها غنى وثروة ثم قال : أن حاكم الروم على بيت المقدس وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها قد لاذ بمصر وإنه كان يجمع فيها جنود الروم وأن العرب ينبغى أن لايتركوا الوقت يضيع سدى ، بل يجب أن يأخذو على يد الحاكم الرومانى قبل أن يشتد خطره : على أن مصر ستكون بعد فتحها قوة للمسلمين ، وظهر مهزا انهم يستمتعون بغناها ويخصبون بخيراتها وأن من المؤكد أن هذا الكلام من عمرو فى الاجتماع الذى عقد بالجابية فى سنة ٦٣٠ م ، صادف هوي من عمر ، ولكنه كان يقدر المصاعب التى قد تتعرض لها حملة تقصد أرض الفراعنة

فيها جيش قوى من جنود الروم المجهزين الكثيرى العدد
ولكن الغارات المتوالية التى أخذ الروم يشنونها على أملاك
المسلمين بالشام تستدعى الجد والتفكير فى وضع حد لهذه
الاستفزازات والمتكررة وهل من الممكن أن يبقى المسلمون
بجوار الروم ويعتدى هؤلاء على أراخيهم ، ويقفون
مكتوفي الايدى لا يبالون بصفيعهم ولا يقابلون الاعتداء
بالمثل ،فتسقط هيبتهم من نفوس الروم . ولهذا كان الخليفة
يتنازعه عاملان عامل السلامة والاحتفاظ بالجيوش الاسلامية
ريثما تستجم وتتجهز وعامل الوقاع عن كرامة الدولة ؛
وتأمين ممتلكاتها فى الشام وفلسطين .

ولقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير المسلمين،ولكن
ظن أن عمرا يقلل من من الصعوبات التى قد تعترضه فى
فتحها : وكان عمر فى ذلك الحين لا يمكنه أن ينقص جند
الشام فيقتطع منه جزء يسير الى مصر ، وقيصرية لاتزال
صامدة للحصار ، ويتزعم المقاومة فيها قسطنطين بن
الامبراطور .

على أن عمرا استطاع أن يفتح قيصرية وان يرغم نجل الامبراطور على الفرار(١) ، وحينئذ عاودا الحديث مع الخليفة فى فتح مصر ، ورجاه أن يأخذ له بجيش لا يزيد عن أ بعة آلاف رجل نوعده أمير المؤمنين أن يفكر فى المسألة

استشار الخليفة مجلس شواره ، فأوصى بالحذر والاناة وعدم الجرى وراء عمرو بل وينبغى لفته إلى المتاعب التى تلحق المسلمين من قد فتح مصر .

غيران الخليفة كان راغبا فى فتح مصر وانما تردد بسبب الظروف التى أشرنا اليها ولذلك أذن لعمرو فى المسير الى مصر على أن يرجع أن وصله كتاب منه قبل أن يدخل الحدرد فليسر على بركة الله تعالى فسار عمرو بن العاص فى الليل بجيشة الصغير ، ولم يصادفه حادث ما فى مسيره حتى صار على الحدود بين فلسطين ومصر وفى رفح على مرحلة من العريش من أعمال مصر ، وأبصر عمرو رسلا تسرع على

---

(١) مختصر تاريخ العرب - ويروى مى البلاذرى أن فتح مصر كان وقيصيرية محاصرة . ولكن الراجح فى رأينا ما أثبتناه هنا

افراسها إليه تحمل رسالة الخليفة، فاخذ عمرو السير ليصل الى الاراضى المصريه، وظفر فعلا بامنيته. فقد لقته الرسالة وهو فى العريش، ففضها فاذا فيها: أنه اذا كان عمرو وقت تسلمه الرسالة مازال فى حدود فلسطين فليعد من حيث أتى وان كان قد دخل أرض مصر فليسر، وعمر مستعد لامداده بما يحتاج إليه فاطمأن عمرو وبعد أن جعل الجنود يشهدون أمام الرسل بأنهم فى أرض مصر فعلا ثم قال لهم إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين

ويحدثنا الدكتور بتلو عن سبب تردد عمر أخيرا بأن عثمان كلم الخليفة فى عمرو بن العاص، وأنه رجل مغامر فيه جراءة وتهور، وانه لابد مقتحم بالناس المخاطر، ورام بهم الى الهلكة، فخشى عمر خشية عظيمة وعول علي أن يأمر ابن العاص بالرجوع اذا كان ذلك ممكنا ولكنه أحس أن أن جيش العرب اذا دخل مصر كانت عودته ءا خذلانا وسبة للمسلمين. ويكون ذلك بمثابة الفرار من العدو، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدم فيه إلى عمرو بما سبق [1]

(١) فتح العرب ص ١٧٤ لبتلو.

ومهما يكن من شىء . فقد وصل عمرو حدود مصر بجيشه البالغ أربعة آلاف فارس كما ذكرنا ، وسار حتى وصل الفرما تلك المدينة التى تعد مفتاح مصر من شمالها الشرقى ، وقد اشتبكت حاميتها مع فرقة عمرو الصغيرة ، ولكن المسلمين غلبوا حامية المدينة واستولوا عليها دون كبير عناء وبذلك أصبح فى يد عمرو معقل يؤمن خط رجعته ومواصلاته إذا نزلت به هزيمة فى المستقبل ولخطورة المهمة التى ستواجهه بعد فتح الفرما فانه عمد إلى أسوار المدينة وحصونها فهدمها وخربها لينعدم انتفاع الروم بها في التطورات المقبلة المحتملة

على أن الروم لم يتحركوا عندما وصلتهم أنباء (الفرما) معتمدين على حامية المدينة فى الذود عنها وقد مضى أسبوعان من بدء حصار المسلمين لها ، والرومان لا يبدون أى شىء يشعر باهتمامهم بها .

وحوالى ١٥ محرم سنة ١٩ هـ (١٧ يناير سنة ٦٤٠ م) سار عمرو فى داخل الأراضى المصرية حتى وصل إلى مدينة (مجدول) إلى الجنوب الغربي من الفرما واستولى عليها ،

ثم ترك فيها حامية صغيرة واتجه صوب القنطرة فالسويس وفى التل الكبير هزم الروم الذين ناوشوه فيه فهزمهم واستولى على ذلك الموضع ، ثم واصل عمرو سيره حتى بلبيس فحصرها قرابة شهر ثم فتحها وأبقى بها حامية صغيرة من جنده القليل .

وهكذا ظل عمر يسير حتى وصل الى هليوبولس حيث فتح ام دنين واحتلها وعسكر فيها ، وكانت شمالى حصن بابليون ، وموضعها الان حديقة الازبكية ولما علم الروم بجد العرب فى الفتح وتملك البلاد هب المقوقس وتيودور رئيس الجيش وشرعا فى تجهيز جيش كبير لملاقاة العرب واستطاعا ان يجمعا عددا كبيرا من جند الروم ومتطوعة القبط وبهذا عزما على لقاء العرب بقيادة عمر بن العاص ، وقد تحصن الروم فى بابليون « حصنهم الشهير فى جنوبى ام دنين فرأى عمر ، ازاء هذا التجهز من الروم ، ان يطلب مددا من المدينه وقد ارسل إلى الخليفة بذلك ، فوعده بأنه سيرسل اليه مايريد من الجند والسلاح

على ان عمرا اصبح على شىء من القوة باستيلائه الفرما ، ثم على أم دنين المجاورة لمعسكر الروم ، وفي الوقت نفسه رأى من جبن الروم عن لقائه ما يجعله يقف موقف المتأنى في هيبة وبأس

ومما يذكر ان عمرا استطاع اثناء مقامه فى ام دنين «الواقعه على ضفاف النهر» أن يستولى على بعض السفن من الروم ، يعبر بها الى الشاطىء الغربى حيث اتجه جنوبا نحو منفيس عاصمة الفراعنه ، فالقى الرعب فى نفس الجيش المتحصن بالحصن ، كما استطاع ان يتصل ببعض اهالى البلاد ويعرف نواياهم نحو العرب ، كما اتصل بكبار القبط المسيحين وكسب ودهم ومساعدتهم من قبل ،فى اغلب الظن؛ حينما وصل الى الفرما تلك المدينة التى كانت عامرة بالكنائس والقساوسة من رجال القبط المسيحيين

كانت الفرما اذن مدينة عظيمة ومهمة اذ منها يبدأ سور مصر العظيم الذى بناه الفراعنة فى غابر الزمن ، الذي سماه العرب (سور العجوز)وقد تهدم معظم هذا السور وقت مجىء عمر والى

مصر ، ولم يبق منه الا النذر من جدرانه التى لا تقل شعبها عن
جدر الاطلانطى الهتلرية فى سنة ١٩٤١ م

ولقد ظل عمرو بكبيبته الصغيرة مرابطا على الحدود طوال
ايام عيد الاضحى من سنة ١٨ هـ (١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) حتى تمكن
من فتح الفرما والسير الى ام دنين وتهديد «بابليون» كما اسلفنا :

لم يكن لدى العرب الذين جاؤوا مع عمرو شىء من عدة
الحصار ، ولم يكن لهم علم بطرقه ، وما كانوا ليملكوا مدينة
الا بالمهاجمة وفتح الابواب . او بالصبر الى ان يضطر العدو
الجوع والضيق ، ان ينزل اليهم ، وقد ملك العرب جميع
الاماكن التى استولوا عليها من الفرما الى ام دنين ، بهذه
الوسيله الساذجة

اما حاكم مصر الرومانى «قيرس» فانه عندما علم بخطر
العرب ، واقتطاعهم اجزاء مهمة من ولايته فانه سارع الى
جمع جنوده وعسكر في «بابليون» وأخذ يتجهز للقائهم فحفر
الخنادق حول الحصن ، واقام الاسوار حول المدائن المهمة
وخصوصاً الاسكندرية «عاصمة وادى النيل حينئذ.»

وبذلك تأهب قيرس ، فى الجنوب والشمال للدفاع عن وادى النيل (مصر)

اما عمرو فقد توقف فى «ام دنين» قليلا منتظرا المدد من الخليفه بالمدينه ، وقد سارع الخليفة بامداده وفي اثناء الامدداد ، لم يكف عمرو عن مناوشة الروم ، بل انه - كما اشرنا عبر النهر وسار نحو الجنوب حتى بلغ ممفيس (عاصمة مصر قديما) وشاهد مساكن الفراعنه ، ورأى الاهرام الباسقة فى الجانب الغربى للنيل ، وبجوارها عاصمة الفراعنة ، والى الشاطىء الشرقى صروح الحصن الرومانى (بابليون) ثم اتجه جنوبا على سفح الاهرام ، حتى وصل الى حدود الفيوم (بيوم) وكان حاكمها (دومنتياس) محافظ المدينة . اما حاكم الاقليم فكان اسمه (تيودوسيوس) وكلاهما رومانى

ولما رأى حاكم الفيوم ، ان العرب يريدون اخذ بلادهم ، سارع الى الدفاع عنها، ولكن بعد فوات الوقت . اذ سد عليهم عمرو بفرقته الصغيرة، منافذ النجاة ، ففر الرومان الى حصن بابليون تاركين امر الدفاع الى الاهالى فقام (حنا) النقيوسى قائد

كتيبة الخفراء، وحنا المارونى مساعده بلقاء العرب وقد حاول هذان المصريان ان يعرقلا سير العرب نحو الجنوب فعدل العرب الى الصحراء الغربيه وواصلو سيرهم، مستولين على كل ماصادفهم من غنم وبقر، وظلو سائرين حتى وصلوا البهنسا ففتحوها عنوة . وقد استطاع عمرو ان يقضى على كتيبة حنا المارونى الذى كان يتبع العرب منذ كانو فى سفح الاهرام والان ظفر به ولكل بفرقته من المغامرين، وكان ذلك فى بلدة بويط او ابويط من اعمال البهنسا فى ارجح الروايات [1]

كان أول سير عمرو إلى الفيوم حوالى شهر مايو من سنة ٦٤٠ ميلادية وقد قضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعا حتى أنهم خسروا خسارة كبرى وغنم العرب فيها مغانم كثيرة . وبعد ذلك بحوالى شهر وصلت الأمداد التى بعث بها الخليفة إلى عمرو وكان أولها بقيادة الزبير العوام وتبلغ كتيبته حوالى الأربعة آلاف مقاتل . ثم

---

(١) أنظر بتلر ص ١٩٧ فى فتح العرب لمصر

كتيبتان أخريان يبلغ عـددهما ثمانية آلاف وبذلك أصبـح عدد الجنود العرب إثنى عشر ألفا إلا قليلا . وبهذا العـدد إلتقى عمرو وهـو القائد العـام الجيش العربى بجنود الروم بقيادة قـيرس (المقوقس) حاكم مصر الرومانى . وبطبيعة الحـال كان تحت إمرته قواد فرق بأعمرون بأمره سجـل منهم الدكتور بتلر . تيودور وأنستاسيوس وتيوروسيوس وغيرهم مما لاضرورة لذكره وعلم الروم أن هـذا الجيش أينما يهدفو إلى انتزاع هذه الولاية الغنية من إمبراطوريتهم ولذلك تربصوا بهم قبل أن يقبض النيل لتكون بينهم وبين العرب موقعة فاصلة على أرض ثابتـة ولـكنهم رغم كثرتهم عجزوا عن القيام بأى عمل يذكر فى ضد العرب .

لقد استطاع عمرو في أقصر فترة أن يملك مدنا وأراضى عظيمة فى وادى النيل قبل أن تصل إليه أمداد من المدينة فهذه الفرما وبلبيس وأم دنين ومنفيس والأهرام والفيوم والبهنسا وبويط من أعمالها وما بين العريش والبهنسا تحت قبضـة العرب ، فلما جاءت الأمـداد وبلغ جيش العرب

أربعة أضعافه لم يكن من المستطاع على الرومان أن يصمدوا لهذا الجيش وقد عجزوا أن يصدوا وربع عددهم من قبل .

وإذ لم يكن بته من المناجزة فقد التقى العرب بالروم فى مواقع تعتبر حاسمة من أهمها موقعة عين شمس (هليو بولس) ثم أخيرا حصار حصن بابليون الذى تجمع فيه الجيش الرومانى ولم يستطع أن يظهر بأنفسه للعرب على أثر موقعه عين شمس (هليو بولس) .

ولذلك رأى المقوقس (قيروس) أن المسألة قد أصبحت فى غاية الحرج ، إذ أصبح العرب سادة البر ، وهم المسيطرون على النيل .

وحوالى شهر سبتمبر من سنة ٤٠ م . بدأ حصار حصن بابليون ، وقد ضيق عليه عمرو الحصار حتى اشتد الحال على الروم الموجودين فيه ، ولا خلاف بين المؤرخين أن قيرس (المقوقس) كان فى الحصن عند بدء الحصار ، وكذلك تيودور قائد الرومان المشهور ، ولعل الرجلين قد فرا بعد موقعة هليو بولس ، وعاذا بهذ الحصن المنيع ،

وكان فى الحصن غير قيرس حاكم مصر ، وجورج والاعيرج قائد الجند ، كثير من أهالى مدينة مصر والاديرة المجاورة ، والتى كانت منتشرة شرقى الحصن تلك البقعة التى كانت عامرة بالنخيل والأعناب ، والكنائس المسيحية .

لقد ظل المقوقس ، ومن يحيط به في بابليون آمنين على أنفسهم فترة غير قليلة ، وكانت مجانيقهم التى لا تكف عن رمى العرب ، قد جعلت هؤلاء ينفد صبرهم ، فيمطرون أهل الحصن وابلا من مجانيقهم وسهامهم ، حتى أيقن الروم أن لابد لهم من التسليم يوما ما للعرب وأخيراً أتفقت كلمة الروم ، على ان يفاوضوا العرب فى بذل جزء من المال لهم ، ويرجعوا عنهم ، وأن يكون وفد المفاوضات برئاسة قيرس (المقوقس) حاكم مصر .

وفعلا ، فتح الباب الحديدى المؤدى الى النهر ، واستقل الوفد السفن ، وعبروا الى جزيرة الروضة ، فلما بلغها ارسل الى عمرو جماعة على راسهم اسقف بابليون ؛ فلقيهم عمرو وأكرم وفادتهم . فأدوا رسالتهم ، فقالوا :

«انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد آظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى فى ايدينا . فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفا لطلبكم» .[1]

ولكن عمراً لم يبعث جواب ما أرسلوا من أجله .

وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين .

وصرح لهم بالسير في معسكر المسلمين ، ثم بعث بكتاب مع الرسل الى المقوقس قال فيه « ليس بيني وبينكم إلا احدى ثلاث خصال . أما أن دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا ، وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٢٣ الترجمة العربية

صاغرون ، وأما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين »

على أن المقوقس ، قد خرج عند مارأى الرسل قد عادوا ، بعد حبسهم عنه ، مما جعله يظن أن عمراً قد قتلهم ، فلما لقيه الرسل سألهم عن حال القوم ، فقالوا « رأيناقوما الموت احب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى احدهم من الرفعه . ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولانهمة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم . مايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتلخف عنها منهم احد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » . وقد رأى قيرس أن القوم ـ وهذه نعوتهم . لاتصلح معهم المداورة ولاتقوى الروم لهؤلاء على المناجزة ، ولذلك أخذ يستعد لمصالحة العرب ، فارسل الى عمرو ان يبعث اليه جماعة من ذوى الرأى ليفاوضهم فى مسألة الصلح ، فبعث عمرو عشرة نفر ، أحدهم عباده من الصامت ـ وكان عبادة اسود شديد

السواد وأمره أن يتكلم عن القوم وان لا يجيب الروم عن شىء يدعونه اليه الا إحدى هذه الخصال الثلاث وذهب الرسل الى المقوقس ، فلما دخل عبادة عليه ، هابه وارتعدت فرائصه ، ثم قال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى : فقال العرب جميعا « ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما . وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله ثم قالوا « أن الاسود والابيض سواء عندنا لا يفضل احدٌ أحداً إلا بالتقوى ، فقال المقوقس فى كثير من الرهبة ـ لعبادة : تكلم برفق ولا ترعجنى . فقال عبادة (رض) أن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى ، وإنى ما أهاب مائة رجل من من عدوي لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى . وذلك انما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله واتباع رضوانه ـ وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ... لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها

يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها ... لان نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء فى الآخرة »

وبهذا الكلام البين ، أثر عبادة فى نفس المقوقس ، فالتفت هذا لأصحابه وقال لهم :

« هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ، إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض » ثم أقبل على عبادة فقال « أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم »

ومع أن هذا الكلام لم يكن غريبا فحسب من حاكم مسئول، لأعظم امبراطورية فى ذلك الوقت على مصر ، فانه — فى نفس الوقت — مدهش غاية الدهش ، بعد أن رأى قوة المسلمين لا فى الشام ، بل فى مصر نفسها ، ثم سمع عبادة يتكلم لا مبلغا لرسالة فقط ، ولكن كداعية مبادىء وواعظ قوم لم تعظهم الأيام ، وندع عبادة (رض) يرد على هذا المقوقس المتغابى عن الحوادث ، بل عن الحق . قال عبادة رضى الله عنه :

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به . وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين أما أن تعظم لنا بذلك الغنيمة فى الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة

الآخرة إن ظفرتم بنا وأنهـا لاحب الخصلتين إلينـا بعد الاجتهاد منا وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصـابرين وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومسـاء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضـه ولا الى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه وأهله وولده وإنما همنا ما أمامنا فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسـك فى الباطل بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسـول الله (ص م) من قبل الينا فحاول قيرس أن يستنزله عن شىء من الخصـال الثلاث ، فلم يفلح ، فبين له عبادة أنهم لا يملـكون التبديل والتعـديل ، لانه وسائر المسلمين متبعون فى هـذا لا مبتدعون ، ثم قال له وقد رفع يديه الى السماء لاورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شىء مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم»

ولما يئس المقوقس من طلب التعديل فى مقترحات المسلمين الآنفة الذكر ، دعا أصحابه الى التشاور على ضوء هذه المقترحات العربية . فقالوا : أما الأمر الاول — وهو اعتناق الاسلام — فلا نجيب اليه أبدا ، فلن نترك دين المسيح الى دين لا نعرفه ، وأما الثانى — وهو دفع الجزية — فانا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا والموت خير من هذا ، فقال عبادة : أنكم إذا دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، وتركت لكم ادارة بلادكم ، فتصبح جميع الوظائف فى أيديكم ، كما ستحفظ لكم كنائسكم فلا يتعرض لها أحد بسوء .

ولما شرح لهم عبادة موقف العرب منهم بعد خضوعهم وقبولهم الجزية ، مالت نفس المقوقس الى المسالمة ، ودفع الجزية . ولكن كبار القوم نازعوا المقوقس، ومالوا الى القتال . أو يهادنوا العرب مدة شهر ليروا رأيهم ، ولكن عمرا لم يقبل مهادنتهم أكثر من ثلاثة أيام وعليهم أن يقولوا كلمتهم خلالها وإلا فالمناجزة لا محالة

ومع أن المقوقس قبل الهدنة كما أراد عمرو، إلا أن القوم وخصوصا جنود هرقل، لم يستطيعوا الصبر على القتال فثاروا وتجهزوا للقاء العرب خارج الحصن، وما جاء اليوم الرابع حتى باغتت الروم العرب من فوق قناطرهم .

ولكن العرب كانوا حذرين فلم تذهلهم المباغتة، فاسرعوا الى أسلحتهم وأوقعوا بهم هزيمة منكرة، وفر من نجا منهم وعاذ بالحصن، وأغلقوا على أنفسهم الابواب أما المقوقس، فانه وجد في هزيمة الروم تعزيزاً لرأيه فى قبول الصلح، فدعا كبار قومه مرة أخرى على أثر الهزيمة وعرض عليهم ما أبوه عليه بالأمس فوافقوا مكرهين، فاسرع المقوقس عند ذلك الى النهر وعبر الى الجانب الغربى حيث العرب وعلى رأسهم داهيتهم عمرو بن العاص، فلقيه وأبرم معه شروط الصلح على أن يدفع الروم الجزية عن يدوهم صاغرون، وبعد إبرام هذه الشروط سافر المقوقس الى الاسكندرية حيث أرسل صك المعاهدة العربية المصرية الى الامبراطور فى بيزنطـــــة، وبها ملحق خاص بين

فيه الأعذار التى ألجأته إلى إبرامها . بيد أن الامبراطور لم يتبين — على ما يقال — كنه هذه المعاهدة وهل هى تسليم لبابليون وحده أم تسليم لوادى النيل كله ، ولذلك بعث برسالة مستعجلة الى قيرس يستدعيه فوراً الى القسطنطينية لمقابلته .

وصل قيرس إلى حضرة الامبراطور ، وقص عليه قصة الحرب بينه وبين العرب ، وقد عقب على ذلك بتبرئة ساحته من وصمة الجبن والخيانة ، ثم كرر للامبراطور عزمه على طرد العرب يوما ما وأن كل ما فعله إجراء وقتى أملته الظروف القاهرة .

وأما الأموال التى دفعها قيرس إلى العرب فى شكل جزية ، فانه من السهل عليه أن يجبى مقدارها وأكثر من متاجر الاسكندرية وجماركها فيعوض ذلك ما خسرته خزانة الامبراطورية ، من مال مصر الذى كان كل غايتها من احتلالها .

على أن قيرس ، لم يخف عن الامبراطور ما لمسه فى

العرب من غرابة وشدة بأس لم يعهدها فى غيرهم من سائر ألوان البشر ، فهم كما أبانوا أنفسهم ، قوم لا يعبأون بأمر من أمور الحياة ولا زخارفها ، ولا يطلبون منها إلا لقمة يسدون بها الرمق وشملة يسترون بها العورة . إنهم قوم « الموت » الموعودون بملك الدنيا

وبمثل هذه الاقوال كان المقوقس يتحدث الى مولاه امبراطور الغرب العظيم وحامى المسيحية فى الشرق والغرب

على أن المهم أن الحصن لم يفك عنه الحصار بعد . فقد كان قيرس قد رضى بشروط العرب ووعد بأن يوقعها من الامبراطور ثم بعد ذلك يخرج لحضور جيوش الروم من الحصن الى حيث يذهبون إلى آسيا الصغرى .

ثم لما ذهب قيرس الى الامبراطور وعرض عليه الحالة وطلب منه الموافقة على معاهدة سنة ٦٤٠ — ٦٤١م لم يقبل الامبراطور وبذلك أصبح قيرس فى موقف حرج بين العرب وبين الروم .

وبلغت أخبار قيرس فى بيزنطة مسامع العرب ،

فاستعدوا لفتح الحصن بالقوة وكان النهر قد انخفضت مياهه مما أصبح من العسير معه أن يحصل الروم الذين فى الحصن على حاجتهم من الماء العذب الصالح ، فكان يخرج منهم جماعات ليتزودوا بحاجاتهم من ماء النيل ، فيتعرض لهم العرب ويقتتل الفريقان فتكون الدبرة طبعا على هؤلاء الروم المحصورين ، وقد ظلت الحال كذلك فترة غير قصيرة . الروم محصورون فى الحصن لا يخرجون إلا فى غفلة العرب والعرب يوقعون بكل جماعة تخرج من الروم . ولقد عميت أخبار فيرس عن أهل الحصن ، وكل مابلغهم أن الامبراطور قد غضب على حاكمهم ، ولكنه لم يصنع شيئاً لانقاذهم من الحصار .

وفى مارس من سنة ٦٤١ م سمع أهل الحصن تكبيرا عاليا فى معسكر المسلمين على الضفة الاخرى للنهر ، فلما استطلعوا الأمر علموا أن الأمبراطور هرقل قد فارق الحياة ولكن الحصن رغم الكارثة التى حلت بعميد المسيحية والامبراطورية ، ظل حوالى الشهر يقاوم جند العرب

وحينئذ صمم المسلمون على فتح الحصن ولو كان فى ذلك ذهاب نفوسهم ، فقام الزبير ابن العوام ، ونادى في الناس من يهب نفسه فى سبيل الله، فتبعه كثير من المسلمين واتجهوا نحو الحصن ، وسارع الزبير فوضع سلما على السور ولم يفطن اليه أحد ، حتى صعد سور الحصن وكبر شارعا سيفه ، وتبعه المسلمون الذين تسلقوا خلفه ، وأمطر الجميع من فى داخل الحصن وابلا من سهامهم .

وعند ذلك اجتمع كبار القوم وعرضوا الصلح بدل سفك الدماء ، وتولى ابرام العقد جورج - وهو القائد الاعلى للروم - مع القائد العربى عمرو بن العاص ، الذى اشترط على جورج أن يغادر جنوده بابليون فى مدى أيام ثلاثة فقط وأن يتخذوا سبيلهم فى الجلاء نهر النيل، وان لا يحمل الجيش الرومانى معه سوى مايلزمه من الاقوات لبضعة أيام وأما الذخائر والاسلحة وجميع ما فى الحصن فيصبح غنيمة للمسلمين وأن يدفع بابليون الجزية للمسلمين .

وكان فتح الحصن فى يوم الجمعة (٦ من ابريل سنة ٦٤١)

وكان خروج الروم منه يوم الاثنين ٩ منه وهو عيد الفصح عند المسيحيين ، وقد ظل الحصن يقاوم قرابة سبعة أشهر فى أصح الروايات [١] .

وبعد ان جلا الروم عن الحصن ، وملكه العرب أصبحت بابليون وما جاورها تحت قبضة المسلمين . وبذلك دان لهم معظم وادى النيل ، ولقد أمر عمرو بعقد جسر بين الروضة وبابليون فوصل بذلك الجزيرة بالحصن .

هذا وبعد تسليم الحصن أخذ عمرو فى ارسال السرايا لفتح البلاد فى الوجهين القبلى والبحرى حتى أخضعها في فترة قصيرة ، وبذلك لم يكن امامه ألا الاسكندرية ،وهى العاصمة الكبرى للدولة المصرية ، والعاصمة الثانية للدولة الرومانية الشرقية ، وقد رأى أن لا بد له من فتحها وطرد الروم منها ، والا فانه لم يصنع شيئا لان مركز الحكومة لايزال فى قبضة الروم .

---

(١) فتح العرب ص ٢٤٠

ولم يكن الصلح الذى عقد فى بابليون سوى عقد حربى على من فى الحصن ، فأمنهم عمرو نظير تركهم لكل ما يملكون ، وفرض الجزية على أهل البلاد

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثرا بعيد المدى . مع انه لم يكن الا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة وذلك لمكانة بابليون وممفيس فى نفوس الروم ، مما جعل هؤلاء يداخلهم الضعف والوهن أمام العرب . اذ بمجرد أن يحسوا بسيرهم نحو الاسكندرية نرى حامياتهم فى (نقيوس) بمصر السفلى - وهى من أعظم المدن التى ركزت بها جيوش هائله - نرى الروم وعلى رأسهم قائدهم يفرون الى الاسكندرية وهكذا فى سائر المدن الواقعة بين بابليون[1] والاسكندرية لم يصادف العرب فى واحدة منها مقاومة تستحق الذكر سوى « كريون » العنيدة أما فى الاسكندرية ، فقد استعد الروم بجيش جرار بلغ حوالى ٥٠ خمسين الف مقاتل عدا

---

(١) انظر بتلر ص ٢٥٠ - ٢٥٤ فى فتح العرب لمصر

الامداد التى توالى ارسالها من بيزنطه الى الاسكندرية ، كما أن أسوار المدينة كان لها كبير الاثر فى صد العرب عنها في أول الامر .

بيد أن العرب ضربوا الحصار على المدينة ، من جهة البر ، وقد استمر حوالى أربعة أشهر نظرا لاتصال المدينة بالقسطنطينية من جهة البحر ، فكانت تصل اليها حاجتها من الاسلحة والاقوات .

ولكن موت هرغل ، وضعف الروم بعد موته ، واضطراب دولتهم ، ثم كره أهل الاسكندرية للحكم الروماني ومساعدة بطريقها للعرب رغبة في استقلاله عن الدولة الرومانية البيزنطية . كل ذلك ساعد العرب على أن يفتحوا الاسكندرية ، ويطردوا الرومان منها وكان ذلك فى سنة ٦٤١ م . وبفتح الاسكندرية أصبح العرب يحكمون جميع أراضى النيل ومُدنه ، لاينازعهم فى ذلك أحد .

أما التغييرات التى أحدثها العرب بعد فتح مصر ، فمن أهمها أولا : نقل العاصمة من الاسكندرية الى النقطة التى

عسكروا بها أولا في بابليون فبنوا مدينة «الفسطاط» وجعلوها مركز الحكومة للدولة المصريه الاسلامية . وقد اختار العرب هذا الموقع لتكون العاصمة متوسطة بين الوجهين البحرى والقبلى لمصر . ثم لقرب العاصمة الجديدة للبلاد العربية، ومركز الخلافة ، وقد سارع عمرو بحفر القناة التى تفصل النيل بالبحر الاحمر ، فسارت السفن من مصر الى الحجاز .

ثانيا - انضمام كثير من سكان مصر الى العرب اذ اعتنقوا الاسلام وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزا هاما فى العالم الاسلامى وقل عدد الاسر المسيحية فيها .

ثالثا - أعاد العرب حفر الترع والجداول التى تركها الرومان . وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حال الفلاحين وتدرجوا فى الرخاء والرقى .

كذلك أطلق العرب الحرية الدينية من عقالها وأصبح الملكانيون واليعقوبيون يدعون لمذاهبهم في حرية مطلقة بدون تدخل من جانب الحكومة ، كما أن الحكومة المدنية ظلت بدون تغيير يذكر . وبقى الموظفون المدنيون من

الروم والقبط فى مراكزهم ، وكل وظيفة خلت حل فيها مصرى ، واكتفى العرب بالاشراف على الحكومة .

أما الضرائب ، فقد خففت الى الحد الذى لايرهق كاهل المصريين وبالجملة ، فان حالة المصريين تحسنت بوجه عام وأحسوا بعدل العرب وظلم الرومان. فقدكان الرومان يجبون من المصريين سنويا حوالى ٢٠ مليونا ، فأصبح العرب لايجبون سوي ١٢ مليونا . والاهم من هذا أن المدن والافراد الذين كانت لهم امتيازات فى عهد الرومان ، أبطلها العرب ، وعاملوا المصريين جميعا على قدم المساواة

مكتبه الاسكندريه

ومما ينبغى ذكره هنا مايقال من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية ، وأعدم كثيرا من كتب العلم التى ظلت زمنا تضىء للعالم سبل الفكر والعقل ، وتشع النور في المدارس والجامعات .

وأنا مع حبنا للحق ، واحترامنا للجميع ، ليجب أن تصرح في حزم أن هذه فرية مافيها مرية ، وأن التاريخ يكذب ذلك بكل قوة . لان عمرا ليس الرجل الذى يقدم

على مثل هذا ، اذ دينه وخلقه يبعدانه عن مثل هذا الجرم ثم أن العرب الذين ثبت أنهم احترموا الاديان التى يعتقدون كفر اتباعها . يبعد منهم صدور هذا ومع هذا فاننا نرى أن ننقل لكم بالنص ماسجله مؤرخ انجليزى . اذ يقول ماترجمته « لقد كثر الجدل فى أمر مكتبة الاسكندرية العظمى وطالما احتدم الخلاف فى شأن احراقها وهل كان للعرب يد فى ذلك عند فتحهم للمدينة أم أنهم لم يقارفوا شيئا من ذلك :

والقصة كما أوردها أبو الفرج كما يلى : قد كان فى ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه « حنا الاجرومى » وكان من أهل الاسكندريه وظاهر من وصفه أنه كان من قسيسى القبط ولكنه أخرج من عمله اذ نسب اليه زيغ فى عقيدته وكان عزله على مجمع من الاساقفة وقد ادرك ذلك الرجل فتح العرب للاسكندرية واتصل بعمرو فلقى عنده حظوة لما توسم فيه بصفاء ذهنه وقوة عقله من الذكاء . وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم فلما آنس الرجل من عمرو ذلك الاقبال قال له يوما « لقد رأيت المدينة

كلها وختمت على مافيها من التحف ولست أطلب اليك الا شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » فقال له عمرو « وماذا تعنى بقولك » فقال (أعنى بقولى مافي خزائن الروم من كتب الحكمة) فقال له عمرو (إن ذلك أمر ليس لى أن أقتطع فيه رأيا دون اذن الخليفة) ثم أرسل كتابا الى عمر يسأله فى الامر فاجابه عمر قائلا (وأما ماذ كرت من أمر الكتب : فاذا كان ماجاء بها يوافق ماجاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها (فلما جاء هذا الكتاب الى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسكندرية فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر ثم قال المؤلف (فاسمع وتعجب) .

هذه هى القصة كما جاءت فى الكتب العربية ، وقد كتب أبو الفرج ما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يذكر المورد الذى نقل عنه قصته ثم نقله عنه أبو الفداء فى أوائل القرن الرابع عشر ثم المقريزى بعد ذلك . لاغرو قد ذكر عبد اللطيف البغدادى احراق مكتبة

الاسكندرية بأمر عمر حوالى سنة ١٢٠٠ ولكنه لم يبد رأيا فيها مما يشعر بأنه كان مصدقا لها . ولعلها كانت متداولة حينئذ ، ولكن لم يرد لها ذكر مكتوب قبل مضى خمسة قرون ونصف قرن على فتح الاسكندرية (١)

ثم يستعرض الدكتور بتلر ، ظروف القصة ورواياتها ، وظروف المكتبة والاطوار التى مرت بها ، وينقل نصوص التاريخ المعاصر فى حرق المكتبة والزمن الذى حدث فيه ثم ينتهى بعد ذلك العرض الممتع إلى أن العرب لم يقترفوا حرق المكتبة ، ويستدل على ذلك بهذه الامور .

أولا : أن قصة احراق العرب المكتبة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسة قرون من فتح الاسكندرية .

ثانيا : أننا فحصنا القصة وحللناها فوجدنا كل ماجاء بها سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

---

(١) انظر فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ترجمة فريد أبو حديد . طبعة دار الكتب الملكية .

ثالثا : أن الرجل (حنا الاجرومى) الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العرب بزمن طويل

رابعا : أن القصة قد تشير الى وحدة من مكتبتين . الاولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر ، وان لم تكن قد اتلفت عند ذلك فانها تكون قد ضاعت قبل فتح العرب للاسكندرية بما لا يقل عن أربعمائة عام وأما المكتبه الثانية ـ وهى مكتبة السرابيوم فاما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ م وإما أن تكون قد هلكت وضاعت كتبها ، فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن .

خامسا : ان كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون شيئا عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

سادسا . أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عند ماعقد (قيرس) صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لكان من المؤكد أن ينص على نقل الكتب الى جانب المتاع

والاموال فى مدنة الهدنة التى بين عقـد الصلح ودخول العرب فى المدينة وقدر ذلك أحد عشر شهرا .

سابعا . لو صح أن هذه المـكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد اتلفوها حقيقة لما اغفل ذلك كانت من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل رضا التقيوسى) ولمامر ذلك عليه بدون كتابة حرف منه ولا يبقى بعد ذلك شك فى الامر . فان الادلة قاطعة ، كما أيد ذلك ثقـات المؤرخين ورواية أبى الفرج على هذا لاتعدو ان تـكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس في التاريخ (١)

واذ كان فتح الاسـكندرية ، وتسليمها الى العرب ، قد تم بطريق الصلح الذى حمله قيرس من القسطنطينية الى عمرو قائد الجيش العربى ، فاننا نؤثر أن ننقل هنا نص معاهدة الصلح كما سجلها الد كتور بتلر فى كتابه (فتح العرب مصر)

---

(١) راجع فتح العرب ص ٣٦٨ - ٣٧٠ فى الفصل الخاص بالمـكتبة (الترجمة العربية) .

وقد سجل لنا أيضا محضر مقابلة المقوقس لعمرو بعد غياب طويل فى منفاه الشاق الذى لقيه بسبب مهادنته للعرب فى عهد هرقل ، بالامس الدابر . يقول فى ذلك :

كان القائد العربى قد عاد الى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد أو علي الاقل بلاد مصر الوسطى ، كيما يستريح باصحابه فى أوان فيضان النيل . وفيما كان هناك فى ذلك الحصن ، وافاه (قيرس) . وقد جاء يحمل عقد الاذعان والتسليم . فرحب به عمرو وأكرم وفادته . ولما علم منه ماجاء من أجله من أمر الصلح قال له (لقد أحسنت فى الشخوص الينا) فقال البطريق . ان الناس قد عولوا على دفع الجزية ، كيا تقف رحى الحرب ثم قال (أن الله قدأعطاكم هذه الارض فلا تدخلوا بعد اليوم فى حرب مع الروم[1]

ويقال أن مفاوضة قيرس مع عمرو استطالت مدة طويلة ، ثم انتهت الى صلح كتب به عقد فى نوفمبر

---

(١) ص ٢٧٧

من سنة ٦٤١ م ، ويسمى هذا الصلح بصلح الاسكندرية تمييزا له كما أسلفنا عن صلح بابليون وهاهي ذى شروط الصلح كما ارتضاها ثقات المؤرخين :

(١) أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

(٢) أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابة القبطى للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ م .

(٣) أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .

(٤) أن تسير حامية الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها . على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوما مابقى فى أرض مصر فى رحلته .

(٥) أن لايعود جيشه من الروم الى مصر أو يسعى لردها .

(٦) أن تترك الكنائس للمسيحيين ، ولا يتدخل المسلمون فى شئونها بأى لون من التدخل .

(٧) أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية .

(٨) أن يبعث الروم رهائن من قبلهم الى العرب كضمان لانفاذ عقد الصلح وحددت الرهائن بمائة وخمسين رجلا من غير الجند .

وبعد ابرام هذا العقد أخذ الروم يغادرون المدينة (الاسكندرية) وهم يضمرون الغدر ونقض العهد . فقد عادوا بعد ثلاث سنين تقريبا ، وأخرجوا العرب من الاسكندرية ولكن هؤلاء استطاعوا أن يهزموهم ويعيدوهم الى بيزنطة مرة أخرى .

وبهذا كان الخلاف فى تقدير فتح المسلمين لمصر وهل كان صلحا أم عنوة بطريق القتال والمناجزة . ولعل فى الالمامة الموجزة التى سقناها مايوضح المسئلة على حقيقتها ، فقد كان الفتح فى أول الامر عنوة مع اعطاء عهد حربى بالامان لمن تعاقد معهم العرب فى بابليون ، ثم كان عهد الاسكندرية ،

فاجرى فتح مصر مجرى الصلح ، ثم لما أغار الروم وملكوا الاسكندرية ونقضوا العهد الذى بينهم وبين المسلمين نبذ هؤلاء اليهم على سواء وأجروا فتح مصر مجري البلاد التى أخذت بقوة السلاح .

على أننا نجد فرقا ظاهرا بين حكام مصر من الروم ، وبين أهالى مصر من القبط المسيحيين ، فهؤلاء - فى الواقع - لم يكونوا أبدا أعداء للعرب ، وانما كانوا يتربصون بالروم الذين لم يخلصوا لهم وخصوصا فى الوقت الذى دخل فيه العرب فاتحين لاضطهادات الروم لهؤلاء القبط بسبب عدم اتفاقهم معهم فى المذهب الدينى .

فكانت معاملة الاهالى تختلف فى نظر العرب ، عن معاملة الروم إلا من دخل من هؤلاء فى عقدهم ووفى لهم ، فالذمة له مرعية مبذولة ، ولعل الطبرى يوضح لنا هذا المسلك من قائد العرب نحو القبط سكان مصر فى تلك المعاهدة أو عقد الامان الذى أورده إذ يقول :

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان

على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لايدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يدفعوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين الف الف وعليهم ماجنى لصوصهم ، فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة . وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا ، عليهم ماعليهم اثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم ، على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا فرسا على أن لايغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر (١)

---

(١) تاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبرى . والكامل فى التاريخ لابن الاثير جـ٢ ص ٣٩٦

تم إلى جانب عقد الامان السالف برواية الطبرى ، يلخص المقريزى (١) لنا عقداً ما بذله العرب للقبط من أهالى مصر ، فى ستة مواد هى بعد الديباجة كما يلى :

(١) أن لايخرجوا من ديارهم

(٢) أن لايفرق بينهم وبين أزواجهم

(٣) أن لايطردوا من قراهم

(٤) أن لا تنزع منهم أرضهم

(٥) أن لا تزاد عليهم الجزيه

(٦) أن يمنعوا من عدوهم

والمهم أن فتح مصر لم يكن كله عنوة ولا كله صلحا ، بل ينبغى التفرقة بين الحكام الذين قاتلوا العرب ، ونقضوا عهدهم معهم ، وبين الاهالى المسالمين ، فهؤلاء لهم عهد وذمة ، وأولئك لا عهد لهم ولا ذمة ، وقد جعل عمر لهم ذمة ، حتى إنه لما أراد عبد الله ابن سعد بن أبى سمره أن يأخذ أرضاً

---

(١) الخطط جـ١ ص ٢٩٤

من مصر دفع ثمنها ، لان البلاد كانت لها ذمة محترمة إذ لم تناصب المسلمين العداء أما الذين ناجزوا العرب فقد طردوا من البلاد ولم يبق لهم أثر بعد ، كما أبنا آنفا بنطابولس والسواحل .

بعد أن تم فتح مصر ، سارع عمرو إلى إرسال الراية إلى البلاد المجاورة فأخضعها لحكم العرب وبذلك جعل جميع سواحل البحرين الاحمر والابيض تديره بالولاء لحكم الفسطاط وتابعة لدار الخلافة فى المدينة

ولما كان عمرو ميالا بطبعه إلى الحرب والنضال ، راغباً فى بسط سيادة الاسلام على كل ما يمكن أن تصل اليه جيوش العرب ، فانه عدل على أن يرسل بعثاً إلى بنطابولس وهو الاقليم الذى يلى مصر غربا من بلاد الدولة الرومانية . وإذ كان عمرو قد وطد نظم الحكم فى مدة شهور الهدنة الاحد عشر . حتى إذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الاسكندرية لم يبق عليه إلا أن يقيم للمدينة وحدها نظامها وقد أرسل عمرو فرقة مجهزة سارت غربا حتى وصلت إلى

برقة فاستولى عليها ، وضمها إلى مصر ، وسار بعد ذلك نحو طرابلس فاستطاع أن يهزم الروم بها بعد حصارهم فترة من الزمن .

كذلك فتح عمرو مدينة (سبرة) التى تعرف الآن بزرارة ، بدون خسارة تذكر ، وفى سبرة توقف عمرو ، ثم عاد إلى برقه حيث جاءته قبيلة (لواته) وقدمت له فروض الطاعة ، ثم عاد بجيشه إلى مصر وفى ركابه عدد لا يحصى من الاسرى والغنائم

ولنا عودة إلى شمالى أفريقيا فى عهد عثمان ومن تلاه من أمراء المؤمنين حيث امتدت الفتوحات إلى بحر الظلمات (المحيط الاطلانطى) ثم عبرت خليج الزقاق (بوغاز جبل طارق) فتأسست في أسبانيا دولة اسلامية . إن شاء الله

على إننا لا نحب أن نغادر هذا المكان من مفاخر العرب ، بدون أن نسجل وصف عمرو مصر لامير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقد طلب عمر هذا الوصف ، فأجابه عمر هذا

« اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة

خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر ورمل
أعفر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات
تجرى فيه الزيادة والفيضان كجرى الشمس والقمر له اوان
يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه تمده عيون الارض ومنابعها
حتى إذا اضلخم عجاجه وتعظمت امواجه فاض على جانبيه
بحكم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في
صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن فى المخايل
ورق الاصائل . فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول
مابدا فى جريته وطما فى درته . فعند ذلك تخرج أهل ملة
محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطن الارض ويبذرون بهـا
الحب يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ماسعوا من كدهم.
فناله منهم بغير جدهم فاذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى
وغذاه من تحته الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة
بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى
ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه
البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيهـا ألا يقبل قول خيسها فى

رئيسها وإلا يستادى خراج ثمرة إلا فى أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل [١] »

ومن مآثر عمرو رضى الله عنه إبطاله عادة إغراق فتاة النيل التى اعتاد المصريون أن يقدموها اليه كل موسم رغم تنصر القبط وإيمانهم بالمسيح . ولكن حينما كان الفتح الاسلامى وجد هذه العادة فأبطلها وأزالها ، وان كان الدكتور بتلر ينكر وجودها وقت الفتح العربى لمصر المسيحية . وهو قول بعزره حسن الظن باخوانه أكثر من أى شىء آخر فى رأينا [١]

---

(١) أنظر فتح العرب لمصر
(٢) أنظر نفس المصدر السابق

حروب عثمان

من هو عثمان :

كنا فى تعريفنا بالخليفتين السابقين نوجز جملة عن كل منهما لتعطى فكرة عن الموجه لهذه الحروب ، وكانت الدولة موحدة فى الدين والسياسة وظلت كذلك طوال عهد أبى بكر وعمر ثم تولى عثمان خلافة المسلمين ، وظل صدراً من ولايته يسير قدما فى الطريق القاصد لسلفيه العظيمين والدولة الاسلامية تتبعه لا يشذ منها شاذ

ولكن بعد ستة أعوام من خلافته شرع دعاة مغرضون يدفعون بالدولة فى اتون ملتهب من العداوة والبغضاء حتى أوجدوا الانقسام في الامة ووضعوا الفرقة بين أسرها ورجالها

ولذلك فانا سنحاول فى حديثنا عن هذا الرجل الوديع الحيي (رض) أن نسهب بعض الشىء فى تبيان حالة الدولة

فى عهده الاخير ، بعد أن تجمل الحديث عنه وعن حروبه الخارجية :

ترجمة عثمان : هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبدمناف فهو أموى قرشى . وأمه قرشية كذلك ، ولد فى السنة الخامسة من ميلاد الرسول وشب على مكارم الاخلاق ، وكان مشهوراً بالحياء الجم ، والعفة التى لا تضاهي .

أسلم على يد أبي بكر الصديق فى سنى الدعوة السرية ، وتزوج ابنتى الرسول ، رقية وأم كلثوم وهاجر الهجرتين ، الحبشة والمدينة . وحضر جميع المشاهد عدا بدرا التى عاقه عنها تمريضه لزوجته المشرفة على الموت . وسفر بين المسلمين والمشركين في عمرة الحديبية . ومن أجله بايع الرسول صحبه بيعة الرضوان . أسهم فى تبوك بقدر من المال لم يستطعه سواه ، ووضع نفسه وماله ونفوذه تحت تصرف دينه ورسوله

كتب لأبى بكر وعمر ، وكان من كبار الشوري في زمن الرسول وصاحبيه . ثم بعد أن طعن عمر اتفقت أغلبية

الشورى عـلى انتخابه خليفة بعـده فساس الدولة خير سياسة فى أيامه الاولى ، ثم ابتلى بالفتن والدعاوى التى نفثت أباطيلها فى الامصار ، إلى جانب أقاربه من بنى أمية الذين زينوا له حسن تقديمهم على المهاجرين والانصار وأنه صلة منه لارحامهم ، فكانت العاقبة ماتتلوا عليك بعد فى موضعه :

حروبه الخارجية :

بعد أن بلغ المد الاسلامى غاية فى مايمدها غاية عهد عمر . إذ أزال الامبراطورية الفارسية من لوحة الوجود وضم أملاكها إلى الخـلافة ، وطرد الرومان من الشام وفلسطين ومصر وطرابلس وبرقه ، وقسمت هذه الاقطار إلى ولايات على كل منها أميرياً تمر بأمر المدينة ، لم يكن حين تولى عثمان شىء من النضال بين المسلمين ومجاوريهم يستحق أن يطلق عليه مواقع مهمة ، بل كل ماحدث إنما هو أما إخضاع لاقليم يحاول الانتقاض ، وأما توسع فى أنحاء صغيرة متاخمة

ولهذا فاننا سنذكر أهم الولايات التي قام أمراؤها ببعض الحركات الحربية فى عصر عثمان :

الكوفة : ومن أهم الولايات التى كانت لها حروب ، ولاية الكوفة وقد كان ميدانها فى الرى وأذربيجان ، وكان بالكوفة أربعون ألف جندى مسلحين ، وقد رابط منهم عشرة آلاف بالرى ، ومثلهم باذربيجان بعد فتحهما . وقد انتقضت أذربيجان فى أمارة الوليد بن عقبة للكوفة ، فأخضعها لحكم المسلمين

وحدث أن أرادت أرمينية أن تخرج على الخلافة فمنعت الجزية والخراج فأرسل اليها الوليد ، أحد قواده سلمان بن ربيعة الباهلى ،فأعادها إلى الطاعة

وفى أمارة سعيد بن العاص على ولاية الكوفة ، تم فتح طبرستان . سار اليها بجيش كبير شمل بعض أبناء المهاجرين والانصار ومنهم الحسن والحسين أبنا على ، والعبادلة

أبناء عمر وعمرو والعباس والزبير، وحذيفة بن اليمان ،وغيرهم وقد صالح سعيد أهل طبرستان

وحوالى سنة ٣٢ هـ وصل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى إلى بحر الخزر (قزوين) حيث استولى على أقليم يلنجر جنوبى البحر .

ولكن الترك الضاربين حول البحر اجتمعوا وهجموا على جيش المسلمين وأوقعوا به هزيمة شديدة ألجأت بعضهم إلى الفرار إلى جرجان وجيلان ، والبعض الآخر ارتد جنوبا ووصل إلى أملاك الدولة الاسلامية

البصرة : أما البصرة فكانت لا تقل عن الكوفة أثراً في الفتح والتوسع ، وكانت مغازيها فى بلادفارس وخراسان وثغر السند والاقاليم المتاخمة لاملاكها ففى عهد عبد الله ابن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم ابن عامر وأوقع بهم هزيمة منكرة

وفى عهد ابن عامر قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس قتله بعض أتباعه كما أسلفنا

وحوالى سنة ٣١ عصى أهل خراسان ، فسار اليهم أمير البصرة فى جيش كثيف فما كاد يشرف على الطبسين حتى تلقاه أهلها طالبين الصلح فأجابهم :

أما أهل قهستان فقد قاتلوا ودافعوا عن بلادهم ، ولكن كرات المسلمين كانت شديدة ، فطلب القهستانيون الصلح فصالحهم ابن عامر . وكذلك حذت نيسابور حذو طبس الاولى ، فعرضت الصلح بدون قتال

ومن أشهر قواد البصرة الاحنف بن قيس ، فقد فتح هذا الرجل بجيشه مدن طخاستا ومروالروذ،وصالح أهل بلخ وأخضعهم ، ولم تمتنع عنه سوى خوارزم من تلك الجهات الفارسية .

وقد عاد عبد الله بن عامر بعد أن ظفر بهذه الفتوح إلى ولايته (البصرة)

الشام : أما الشام ، فقد جمعت لمعاوية بن أبى سفيان ، فأصبح قائد أجنادها جميعاً وكانت له غزوات مع الروم ، فى البر والبحر ، وقد وصل معاوية إلى عمورية وأسكن

الحصون التى بين الشام وبين عمورية جماعة من الجند كمسالح تحميها من هجمات الروم ، وتحمى الحدود أيضاً من الاعداء

وقد امتدت فتوحات معاوية إلى أقصى بلاد أرمينية من الشرق حيث أرسل قائده حبيب بن مسلمة فبلغ قاليقلا فى أرمينيه فأخضعها وصالح أهلها ثم استمر فى فتوحه إلى تفليس جهة باب الابواب جنوب غربى الخزر

وحوالى سنة ٢٨ هـ فتح معاوية جزيرة قبرص ، وهى من الغزوات البحرية الناجحة التى جعلت المسلمين يفكرون جديا فى مواصلة هذا اللون من النضال البحرى المفيد مما مكن لهم فى تجهيز الاساطيل العظيمة فيما بعد ، ففتحوا معظم الجزر فى بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) وصيروه بحيرة إسلامية

مصر : وأما فى الفسطاط . فقد كان أميرها إلى أوائل خلافة عثمان ، عمرو بن العاص ، وقد أسلفنا فتحه الاسكندرية صلحا ، والآن فى سنة ٢٥ هـ أى بعد ثلاث أو أربع سنوات نقض الروم الصلح وأغاروا على الاسكندرية ، فسار اليها

عمرو وهدم أسوارها وأوقع بالروم شر هزيمة ، وغنم كثيراً من مراكب الاسطول الرومانى

وقد أراد عمرو أن يمد رقعة ولايته فى المغرب ، فأعد جيشا بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وسيره إلى سواحل أفريقية الشمالية ، وقد سار عبد الله وفتح فى طريقه كثيراً من المدن ، بعد طرابلس غربا وقد عاد بعد أن غنم حوالى المليونين ونصف المليون دينارا

وفي أمارة عبد الله بن سعد على مصر ، أغار الروم على مصر من الشرق ، فقابلتهم أساطيل المسلمين من الشام ومصر ، وأوقعت بالروم هزيمة ساحقة سميت فيما بعد بذات الصوارى

وأهم ما يمتاز به عهد عثمان (رض) أن أصبح للمسلمين فيه أسطول بحرى قوى ، ومهر المسلمون في الحرب البحرية ، بعد أن كانوا يهابون البحر وركوبه فضلا عن القتال فيه

ونجتزىء بهذا القدر من الفتوحات العثمانية ، لنتحدث عن أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه الحروب .

أهم نتائج هذه الحروب :

قد يخطىء من يظن أن حروب العرب فى صدر الاسلام ، إنما كانت لغرض الفتح والتوسع ، للاستعمار أو المال والنفوذ ، وإرغام الدنيا على اعتناق مبادىء الاسلام كرها أذابوها طوعا . ولذلك فان مهمة المؤرخ النزيه من أشق المهام ، ولا سيما حين يعرض لبحث نتائج حروب تعتبر فى زمننا الحاضر خاطفة . فقد استطاع هؤلاء العرب أن يفتحوا الدنيا المعروفة حينئذ فى أقل من جيل ، ومن الغريب أن تتركز هذه الفتوحات وتظل تشهد لهؤلاء الغزاة بالعبقرية والنضوج فى الحرب وسياسة الشعوب ، بل فى التعمير والانشاء ، وطرق الحكم والادارة ، مما جعل البلاد التى حلوها فاتحين تخضع لحكمهم ، لا كخضوع البلاد المحتلة اليوم ، بل طاعة الراضى المطمئن لأمثل إدارة شرعها الانسان لأخيه الانسان . فما هى الحوافز لهؤلاء العرب المسلمين إلى تملك بلاد الامم ، وما هى النتائج الحقيقية التى أثمرتها تلك الحروب على أن المتتبع لتاريخ المسلمين ، وكيف ظلوا زمنا

— فى بدء الدعوة — لا يستطيعون الجهر بمبادئهم ، ولا عبادة ربهم ، إلا سراً وخفية من الناس ، حتى إذا ما أحس العالم بدينهم طاردهم وتآمر عليهم ، وأعلن حربا إجماعية على نبيهم ، فهؤلاء سادة العرب وعلى رأسهم قريش ، قد بيتوا أمرهم على قتل الرسول وتشريد صحبه المسلمين :

وهذا امبراطور فارس يرسل اليه نبي الاسلام ورئيس الدولة الاسلامية محمد بن عبد الله ، كتابا يفيض رقة وعذوبة ، ويخلص له النصح وسبل الهداية ، فيجيبه بتمزيق الكتاب الكريم ، ويرسل إلى أحد عماله بان ينكل برسله ، ويستأصل أتباعه حتى لا يبقى فى الجزيرة من يقول لا إله إلا الله

وهـذا امبراطور الروم يقف من المسلمين موقف العداء السافر ، فيعين المتمردين فى مشارف الشام على المسلمين ويمدهم بالاسلحة والعتاد ، ويحارب العرب بالعرب ، وغير هؤلاء ممن حاربهم المسلمون لو فتشنـا عنهم من التاريخ الصحيح لوجدناهم جميعاً قد بدءوا بالعداء ، وحاولوا الوقوف فى سبيل المبادىء الاسلامية ، التى لم تكن إلا دعوة التحرير

والمساواة ، وشريعة الاصلاح المنتظر لشتى مناحى الحياة

ونري من هذه الالمامة البسيطة ، أن الحروب الاسلامية فى عهد النبى وخلفائه الراشدين ، ترجع جملة الاسباب التى شنت من أجلها إلى أمرين اثنين هما : الدفاع عن النفس ، وحماية الدعوة الاسلامية وأما الأموال ، والنفوذ ، وتوسيع رقعة الدولة ، فهى أمور ترتبت على القتال بحكم الطبيعة وناموس الكون

ويمكن تلخيص أهم الآثار والنتائج للحروب التى قام بها الخلفاء الراشدون بوجه خاص فيما يأتى :

(١) ظهور الامة العربية فى الميدان الدولى :

فقد كانت هذه الامة وقت رسالة الاسلام ، موزعة هنا وهناك لايجمعها ملك واحد تدين له بالولاء ، وليست لها سياسة موحدة ، ولا شريعة منظمة ، بل كانت منها جماعة تتبع الفرس فى العراق واليمن ، وأخرى تدين للروم فى الشام وما جاورها . وكانت شهرة العرب فى التنازع والتنابذ ، والهمجية والفوضى ، اللهم إلا ذلك الضرب من الفصاحة

الفطرية والبلاغة البدوية التي لا بد لهم فيها ، ولا شأن لقومهم في تكلفها ، وما اشتهر به العربي من الانفة والشجاعة والكرم والنجدة ، والتي استغلها المستعمر من الفرس والروم فى ضرب القبائل بعضها ببعض ، ففرقوا بينهم ليسودوا عليهم ، ويسخروا جزيرتهم لصوالحهم وشهواتهم

فلما توحدت الجزيرة ، وانضوت تحت شريعة الاسلام ، أصبح للعرب شخصية ، ودولة قوية أمكنها أن تقوض دول الفرس والروم ، وأن تؤسس على أنقاض الظلم والطغيان والاستبداد الى أشاعها هؤلاء في الدنيا ، دولة مؤسسة على التقوى من أول يوم ، فشاع العدل ، وعمت المساواة وأخصب الناس فى كل شبر دان بالاسلام ، ورضى بادارته ، وبذلك أصبح للامة العربية صفة دولية قوية ، وكانت الدولة الاسلامية العظمى

على أن من أهم الانقلابات المترتبة على ظهور الدولة العربية في أحضان الاسلام ، ذلك الانقلاب الشامل الذى غمر المعمورة كلها ، فلقد زالت امبراطورية الفرس نهائياً ،

وأصبحت أملاك الاكاسرة قطعة من الدولة العربية الاسلامية ، وغزت مبادىء الاسلام قلوب الفرس فدانوا — طوعا لا كرها — بمبادئه ، وأسلموا لله ، وأصبحوا من أخلص الناس لتعاليم محمد ، وشريعة القرآن

وليس الروم المسيحيون بأقل شأنا من الفرس ، فهذه أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا وأفريقية تقتطع من أباطرة الروم ، وتتبع الدولة الاسلامية ، ويعتنق الشاميون والمصريون والافريقيون إلا قليلا منهم — مبادىء الاسلام ، ويصبحون عاملا قويا من عوامل نشره والدفاع عن دولته وهذا الانقلاب ليس إلا وليد الحروب التى دافع بها العرب المسلمون عن أنفسهم ومبادئهم فكان انتصارهم على الظالمين ، وتملك أرضهم وديارهم ورعاياهم الذين رضوا بشريعة العرب ، وقوانين الاسلام التى تضمن للجميع العدل والرحمة والمساواة

(٢) التطور فى فنون الحرب والسياسة :

فقد كانت الحرب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الارض ، يراد تملكها ، أو بسبب اعتداء يقع على بلد

أو قبيلة ، ولكنها الان تطورت فأصبحت الحروب بسبب المبادىء ، فالمسلمون يريدون أن تكون مبادئهم هى السائدة على الجميع والمشركون والمجوس وغيرهم يريدون سيادة مبادئهم وهنا اصطدمت هـذه المبادىء المتناقضة ، وأصبح اتباعها وجها لوجه .

على أن هذا لم يكن كل شىء في التطور الحربى . بل نجد لونا جـديدا آخر ، وهو ما كان يعرضـه الغزاة العرب على أعدائهم من : الاسلام أو الجزية أو المناجزة : و عدم التعديل فى هـذه الـكلمات الثلاث حسب ترتيبها . وهذا ضرب لم يعرف لدى الفرس والروم ولا غيرهما من قبل .

ثم هذه المعاهدات ، التى ابنا بعضا منها فيما سلف ، لم تكن معروفة بشكلها الاسلامى قبل ظهور الدولة الاسلامية وحروبها .

عـلى أن النتيجـة الفريدة التى نجمت عن حروب المسلمين بعد فتح البلاد ، هى تلك السياسة الفذة التى أرضت جميع الشعوب إلا من كان فى قلبه حقد على العدل والمساواة

ممن كانت تحدثهم نفوسهم بالثورات والعصيان، وهؤلاء اضطروا المسمين احيانا إلى الشدة معهم والتنكيل منهم.

لقد ساس المسلمون الشعوب التى فتحوها، فأحبتهم وقدرتهم، وامتزجت معهم حتى كان هذا اللون البديع من عباقرة الاسلام فى الشرق الاسلامى، واسبانيـا ومصر الاسلاميتين، وغيرهما.

٣— ومن أهم النتائج التى ترتبت على الحروب. إلى جانب توسيع رقعة الدولة، ونشر مبادىء الاسلام في البلاد المفتوحة وانتشار العلوم والحضـارة العربية. — تسرب المبـادىء الاسلامية إلى الملل والنحل الاخري، التى كانت تدين بها الامم المجاورة، وقد زالت بعض هذه الديانات بعد أن التقت بالاسلام، فى أول جولة، من جولات النضال وذلك يظهر بوضوح في ديانات الفرس من زداد شتية، وما توبة ومزدكيه، ومن تلك الديانات ما صمدت، ولكنها بدأت تعدل فى مبادئها وفقا لما ينادى به العرب في كل مكان من توحيدالله. ونلحظ هذا التعديل بعد الاسلام، فى الخلاف

الذي نشأ حول عبودية المسيح والوهينه والوهبة العذراء وبشريتها، وعبادة الصور وتقديسها، أو اعتبارها أمورا عادية، ولقد تفاقم هذا النزاع بين قساوسة المسيحية ولا سب فى بيزنطه واياصوفيا حيث كان المسلمون والمسيحيون يلتقون كثيرا ويتحادثون فى الدين وغيره بحكم العادة، ولعل كثيرا من مذاهب المسيحية بدين بوجوده لتعاليم محمد والقرآن

فالفتوحات الاسلامية إذن أنتجت تعديلات كثيرة فى الملل والديانات الاخرى، بل أن الباحث عن خشوء الفرق المسيحية أو جلها، وكذلك اليهودية، ليرى أن أساسها احتكاك هؤلاء بالمسلمين وتسرب الاسلام بمبادئه الصافية الصريحة إلى نفوسهم.

وعلى الجملة فان حروب الراشدين التى كان هدفها - كما أسلفنا - الدفاع عن النفس والمبادىء قد أثمرت ثمرا شهيا طيبا فى تأمين النفس والمبادىء، وأصبح الراكب يسير من صنعاء « إلى بصرى » لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه كما أخبر رئيس الدولة الاول صلى الله عليه وسلم.

هذا فضلا عن ذلك الابتكار والتجديد في نظم الحكم والادارة مماسجله علماء الدنيا بالحمد والثناء على العرب الفاتحين وأسلوبهم الحازم فى معاملة الشعوب التى دانت لدولتهم أمدا طويلا ، وخضعت لسلطانهم فترة غير قصيرة .

ونجتزىء بهذا القدر من نتائج حروب الخلفاء ، لنسرع بكم إلى فترة غامضة من حقب التاريخ الاسلامى . وتلك هى ثورة الامصار على الخليفة الثالث ،وما انتهت إليه ،ثم خلافة على ، ونزاعه مع معاوية وكيف انتهى هذا النزاع

ومع اكفهرار ليل الحوادث المتناقضة فى هذه الحقبة ؛ فاننا نرجوا أن نوجز كلمة في هذا تعطيكم فكرة واضحة عنه تطمئنون إليها باذن الله تعالى ، على أن نعود لتفصيل أوفى في الكتاب التالى

ثورة الامصار الاسلامية وأسبابها :

من أهم أسباب الثورة تلك الدعاية الخبيثة التى تولى

بثها ابن السوداء [1] وألف لها أنصارا يدعون لمذهبه فى الوصية والرجعة [2] ، والطعن على ولاة عثمان بما زعموه أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .

ومن أهم الاسباب أيضا عزل عثمان عمال عمر ، وتولية بدلهم من أقاربه ، فعزل عمرو بن العاص عن القسطاط ، وولى بدله عبد الله بن سعد ، وعزل أبا موسى الاشعرى ، وعزل المغيرة بن شعبة وولى على العراق عبد الله بن عامر ، وجعل مروان وزير الخلافة الاول ، والمتصرف فى جميع شئونها . ومعاوية مستبد باجناد الشام ، وبذلك أصبح المهاجرون والانصار ليس لهم من أمر الدولة شىء ، وقد قامت بسيوفهم وتضحياتهم .

---

(١) هو عبد الله بن سبأ أحد يهود اليمن الذين اسلموا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ونظم دعايته ليوقع الفوضى بين المسلمين فى عهد عثمان .

(٢) من مبادىء السبئية القول برجعة الرسول بعد موته ، ويقيسون ذلك على رجوع موسى من التيه ، كذلك يقول ابن السوداء بأن الرسول نص على خلافة على بعده ، ووصى المسلمين فى نص وضعوه كذبا على رسول الله .

ولذلك تفاعلت هذه الاسباب مجتمعة ، وكانت تلك الثورة الجامحة التى لم يستطع كبار المسلمين أن يحولوا بينها وبين هدفها الوحيد من عزل عثمان أو قتله إن لم يعتزل .

ولما ارتفعت الشكوى من عمال عثمان ، واستبدادهم بالرعية فى أماراتهم ، ذهبت وفود من الفسطاط والبصرة والكوفة متظلمة من أمراء عثمان فى نواحيهم ، وقد حاول عثمان أن يصلح الامر ويتلافاه كما تكلم على عدة مرات فى هذا الشأن ، وصرف الوفود إلى بلادها ولكن عثمان بتحريض مروان بن الحكم أبى الاستماع إلى نصائحه ، وأخيرا جاءت الوفود إلى المدينة تحمل كتابا من مروان ، كتبه بخطه ، وختمه بخاتم الخليفة وأرسله مع ورش غلام عثمان إلى عامله على مصر يأمره الخليفه بقتل الذين وفدوا على المدينة ولقد عرض هذا الكتاب على الخليفة عثمان ، فصرح بأنه لايعلم من أمره شيئا ، وهنا طلب منه الثوار أن يسلم إليهم مروان ليقضوا فيه بما أمر الله فأبى أن يسلمه ، فاستشاطوا غضبا ، وحاصروا الخليفة فى بيته . ويقال أن أقاربه تخلوا عنه

وقت الشدة وهربوا من المدينة ولكن عليا وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعا مشهودا بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم .

وأخيراً تسلق اثنان منهم جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنه أو ٨٦ سنه ، وكان ملتحيا ، متوسط القامة ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة العزيمة وصلابة الرأى بيدانه امتاز بالجود والكرم ، ومما أذيع عنه أنه أهدى مروان فى عدة مناسبات أموالا طائلة من بيت المال ، وكذلك ابن سعد وغيرهما من أقاربه مما جلب عليه سخط الرأى العام

بيعة على

ولما قتل عثمان ، بويع لعلى رضى الله عنه ، وقد كان فى خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يأل جهدا فى مساعدتهم وتزويدهم بالارشادات القيمة

كذلك ينسب كثير من الاعمال الادارية العظيمة التى تمت في عهد عمر إلى إرشاداته . إذ كان فى الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحه ، فأنابه عنه مدة سفره الى الشام .

ولكن عليا كان دائما فى جميع أطوار حياته مستقل الرأى ، لايداهن ولا يرائى ، متفرغا إلى العلم وتهذيب أولاده . ويقال أنه حين افضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع النبوى ببساطته المعهودة ، وأخذ يتقبل البيعة من الناس ، وهو متوكىء على قوسه الطويل وكان فيما قال : انه مستعد للتنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه : وأنه ليخيل للمرء حينما بويع على أن الكل سيطأطىء هامته أمام هذه العظمة المتلألئة الطاهرة ، ولكنه قدر غير ذلك ، فلقد أحاط به فى بادىء الامر عداء بنى أمية ، ولكنه لم يحتط للدسائس ، وأبى أن يقر عمال عثمان مدفوعا بشرف الغاية التى كانت من أبرز ميزاته .

وعلى الرغم من النصائح المتكررة التى اسديت إليه لمسايرة الظروف . فقد أصدر أمرا بانتزاع الاملاك التى اقطعها عثمان لاقاربه وأتباعه من بيت المال ، وقسم الخراج طبقا للقواعد التى سنها عمر ، فجلبت هذه الاجرات الحازمة سخط الذين أثروا فى العهد الماضى ، وقد تنازل بعض العمال

عن مناصبهم بدون مقاومة ، بينما رفض بعض النزول على أمر الخليفة ، وكان زعيم حركة المقاومة معاوية أمير الشام الذى جمع من ولايته ثروة طائلة وأعد تحت امرته جيشا لجبا يدين له بالولاء ، وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد أن احتاط للامر واستعد للمقاومة (١)

(١) أنظر ترجمة وافية لعلى ، وأبرز الاحداث فى عهده فى الملحق الخاص به فى آخر الكتاب .

تذييل

على بن أبى طالب

ترجمته ـ أبرز الاحداث فى خلافتة ـ مقتله وتولية الحسن

ترجمة على :

هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فهو ابن عم رسول الله لان أباطالب وعبدالله اخوان شقيقان وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة . وكفله الرسول وهو صغير ولما بعث صلى الله عليه وسلم كان على أول مسلم من الصبيان نام مكان الرسول ليلة الهجرة مضحيا بنفسه فى سبيل الله وزوجه النبي ابنته فاطمة فانجبت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب الكبرى .

شهد المشاهد كلها عدا تبوك فقد أذن له الرسول ليكون خليفة عنه فى أهله . عرف بالشجاعة وقوة الارادة والفقه فى الدين والسلوك القاصد لسبيل الرسول ، أما فصاحته وبلاغته فضرب

الامثال ومحط الرحال بايع للثلاثة وهو مطمئن النفس ، مع أنه أحق منهم بها فى رأيه ، ولكنه يجل الوحدة ، ويحب الجماعة . بويع له بعد قتل عثمان وهو كاره وخاض الحروب التى أعلنها بعض المسلمين على خلافته وهو متذمر لم يدع بابا من أبواب الوفاق إلا طرقه ، ولا نافذة من نوافذ الصلح وجمع الشمل الا فتحها ولكنه الجىء الجاء ، وأكره اكراها على خوض حرب أخوية - ومكره أخاك لا بطل - رضى الله عنه وكرم وجهه وغفر الله لنا وله ولسائر المسلمين

خطبته

وبعد أن تولى الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز جل انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا الخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة . إن الله حرم حرما غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، ولا يحل اذى المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت . فان الناس أمامكم . وان ما من خلفكم الساعه تحدوكم

تخففوا تلحقوا . فانما ينتظر الناس أخراهم . اتقوا الله عباده في عباده وبلاده انكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه . واذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض » .

أول أعماله

كان أول شيء عمله على بعد البيعه أن أصدر أمرا بعزل جميع أمراء الامصار في العهد العثماني ، وذلك قبل أن تصل اليه بيعة أهل الامصار . وقد حاول المغيرة وابن عباس أن يصرفاه عن ذلك فرفض رفضا باتا . ثم فرق عماله إلى جميع الامصار . فمنهم من تمكن من الدخول في ولايته الجديدة . ومنهم من حيل بينه وبينها فعاد الى المدينة .

ومن أشهر الذين رفعوا لواء العصيان معاويه أمير الشام الذي رد سهل بن حنيف عامل على الجديد . وأرسل إلى على كتابا يخبره بعدم الطاعة له حتى يأخذ بثأر عثمان من قتلته وقد لج معاوية في الخصومة فيما بعد حتى اتهم عليا نفسه بالشركة في دم عثمان

وحذا حذو الشام الكوفة ، فقد ردت أميرها عمارة ابن شهاب . أما البصرة ومصر فقد انقسمت علي نفسها ، واستطاع الامير الجديد أن يدخلها ويعالج بعض أمورها .

أما اليمن فان عليا أرسل إليها ابن عمه عبيد الله بن عباس فدخلها وضبط أمرها ، ولكن بعد أن جمع الامير العثمانى كل ما فى بيت المال وحمله ولجأ إلى مكة .

أبرز الاحداث فى عصره :

الجمل

أبرز الحوادث فى خلافة على - وكل أيام الرجل حوادث دامية - الى جانب عزل العمال والعصيان من كل ناحية . موقعة الجمل التى سببها خروج طلحة والزبير وعائشة ، وانضمام بنى أمية اليهم ، ثم محاولة هؤلاء ان يدخلوا البصرة ويتملكوها ، فكانت تلك الواقعة الدامية التى ذهب فيها كثير من رجالات الاسلام وأبطال الدولة ، وعلى رأسهم طلحة والزبير وذلك فى رجب من سنة ٣٦ هـ .

صفين

ثم لم يكد يندمل جرح (الجمل) حتى أعقبها (صفين) بين على ومعاوية ، وقد استنفد على جهده مع معاوية فى

سبيل الصلح ومراجعة الجماعة ، ولكنه باء بالفشل فلم يكن بد من القتال . فالتقى الجمعان المسلمان الاخوان فى سهل صفين بين الشام والعراق، وأخذ الفريقان يتناوشان ببعض الكتائب من الجيشين طوال شهر ذى الحجة من سنة ٣٦ هـ . فلما أهل المحرم من سنة ٣٧ هـ توادع الفريقان الى انقضائه طمعا فى الصلح ، واختلفت الرسل بينهما ، ولكن لم تسفر هذه الرسائل والرسل عن نتيجة حاسمة للمصالحة ، ولذلك ما كاد يهل شهر صفر من سنة ٣٧ هـ . حتى عبأ الطرفان قواتهما وشرعا فى الحرب على طريقة الفرق الصغرى السابقة .

وحوالى ٨ من صفر سنة ٣٧ هـ أصدر على أمرا بالهجوم العام لوضع حد لهذه المناوشات التى لا تكاد تنتهى ، وبذلك التحم العراقيون بالشاميين ، وظلوا يومين كاملين يقتل بعضهم بعضا ولا غالب منهم ولا مغلوب .

ولكن بعد ليل اليوم الثانى (ليلة الهرير) اشتد الامر على أهل الشام ، فطلبوا التحكيم ورفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، ينادون : هذا كتاب الله بيننا وبينكم .

من لثغور الشام بعد أهل الشام . من لثغور العراق بعد أهل العراق .

ولما رأى أهل العراق ذلك طلبوا من على اجابة أهل الشام الى كتاب الله ، فلما أفهمهم أن هذه خدعة ، وأن الخير لهم أن يصبروا ساعة ليكون النصر تاما . لم ينصاعوا لنصحه فأوقف على القتال . ثم كان التحكيم ، وكان الفشل الذريع فى صفوف على ، والنصر الهائل فى صف معاوية .

نتيجة التحكيم

فقد أعلن عمرو بن العاص خلافة معاوية ، وانقسم اتباع على على انفسهم . فمنهم محبذ لسياسه على فى حرب أهل الشام ، ومنهم الخارج عليه المتردد فى دينه وسياسته وهؤلاء هم الخوارج الذين زعموا ان عليا حكم الرجال في دين الله ، فهم يطلبون منه أن يتوب بعد أن يقر أمامهم بأنه كفر ثم هم يسيرون معه الى عدوهم وعدوه .

ولكن عبثا حاول علىّ أن يقنعهم بالعدول عن هذه المهاترات الباطلة ، وكانت بينه وبينهم مواقع فى النهروان وغيرها

مقتل على وبيعة الحسن

وفى رمضان من سنة ٤٠ هـ تآمر الخوارج على الفتك بعلى ومعاوية وعمرو ، ولكن نجا الاخيران ، وأصاب قضاء الله عليا فاستشهد فى المسجد . فى ١٧ من رمضان من سنة ٤٠ هـ فبويع لابنه الاكبر (الحسن بن على) فى رمضان من نفس العام وقد أخذ الحسن على عاتقه من أول يوم أن يكافح معاوية الذى اشتدت شوكته حتى اقتطع كثيرا من أملاك الخلافة الهاشمية فى العراق نفسها ، بعد أن ضم إليه مصر وبعض البلاد الاخرى وتشاء المصادفات السيئة أن تقوم ثورة فى المشرق الاسلامى التابع لخلافة الحسن فيخرج الحسن على رأس جنده لاخماد الثورة

وبينما يحاول الحسن تسكين الفتنة فى هذه الناحية ، يثور جنده ويسلبون متاعه ويحاولون الاعتداء عليه حتى لقد هدده بعض منهم بتسليمه الى معاويه .

وهنا فكر الحسن جديا فى ترك هذا الجند المتقلب الذى لا يثبت على رأى ، ولا يدافع عن عقيدة . فكتب الى معاوية يدعوه للصلح والجماعة . ويخبره أنه مستعد لعكس

الموقف الذى وقفه أبوه من قبل .

وقد كانت عيون معاوية مبثوثة فى جيش الحسن نفسه فوصلت انباء التمرد من جيش الحسن قبل أن يفكر الحسن فى مراسلة معاوية . ولذلك يقال ان معاوية أرسل رسله الى الحسن يبذل له ما يحب في قرطاس أبيض ختمه من أسفله وطلب منه بأن يكتب كل ما يحب وهو مجيبه إليه .

وفى هذا الوقت أرسل الحسن رسله وكتابه الى معاويه حتى كانت رسل الرجلين فى طريقهما الى الشام والعراق في وقت واحد وبدون علم واحد منهما برسالة الاخر .

ولقد تم تنازل الحسن بشروطه فى أواخر ربيع الاول من سنة ٤١ هـ . وبذلك ختمت تلك الصفحة الدامية من صفحات النضال العنيف بين الهاشميين والامويين بانتصار هؤلاء ، وتأسيس دولتهم الاموية التى ظلت تحكم حتى سنة ١٣٢ هـ حيث أزالها بنو العبـاس من دمشق ، وأقاموا على انقاضهـا فى الـكوفة فبغداد دولة هاشمية . ـ عمرت حتى سنة ٦٥٦ هـ . والملك لله يؤتيه من يشاء ،

الخطا والصواب

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٥	٤	ضحة	حنتمة
٣	٥	فاستدلوا به	فاسندوا اليه
٢ حاشية	٦	مختصر تاريخ ص ٥	مختصر تاريخ العرب ص ٥٠
٨	٧	على فراش	على فراش الموت
١٣	٨	ايا عبيدة	ابا عبيد
١٤	٨	سرعا	مسرعا
١	١٠	مقطوعة	متطوعة
١	١٠	عدد الغير	عددا غير
٤	١٠	المودة	الردة
٢ حاشية	١١	الذين	الذى
٢	١١	بعددهم	بعدوهم
٤	١٢	عملوا لم	وعملوا على لم

السطر	الصفحه	الخطأ	الصواب
٥	١٢	القرزان	الفيرزان
٥	١٤	رهقاء	رهقاً
٨	١٤	جمعها	جموع
١٢	»	زهو	رموه
١٤	»	تلقوا	ثلثوا
٦	١٥	المجتين	المجنبتين
٨	»	يريعه	يرميه

هـذا نموذج من بعض الاخطار ونكل الى فطنة القارىء اصلاح مايصادفه من اشباهها والله الموفق وحده